

سازمان اسناد و کتابخانه ملی

الامام مرتضى العابدی

عقیدہ مربع



مجله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الامام زين العابدين (عليه السلام) عنقود مرصع

كاتب:

سليمان كتانى

نشرت فى الطباعة:

دارالروضة

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٨	الامام زين العابدين (عليه السلام) عنقود مرصع
٨	اشارة
٨	استشارة المراجع
٨	للمؤلف
٨	كلمة شكر
٩	الى القارىء الحكيم
٩	تقديم
١١	الكلمة الأولى
١١	المقدمة
١٣	تمهيد
١٥	نقوش الظل
١٥	مع الولادة
١٥	شاهزنان
١٧	غزاة
١٨	الحسين
١٨	اشاره
١٩	رسالة الانسان
١٩	الامامة
٢٠	الوعد
٢٠	الواعد
٢٠	الموعود
٢١	الاقتناع

٢٢	الكوفة
٢٢	على الصغير
٢٥	نبذات
٢٥	ابن ملجم
٢٥	و الأمة؟
٢٦	و القبليّة؟
٢٦	و الامام الصغير على؟
٢٧	الامام الحسن
٢٩	وقائع
٣٠	رجوع القافلة
٣١	يثرّب
٣٢	الحزن يلون الصور
٤٠	ظل النقوش
٤١	اشاره
٤١	اطارات الامامة
٤٣	رمق الشهادة
٤٦	النعمان بن بشير
٤٨	من يثرّب الى يثرّب
٥١	و في يثرّب
٥٥	زين العابدين
٥٥	اشاره
٥٨	رسالة الحقوق
٥٩	الصحيفة السجادية
٦٠	صياغة الصحيفة

٦١	اشاره
٦١	العرض
٦٤	البعد البيانى
٦٥	الخاتمة
٦٥	تعريف مركز القائمة باصفهان للتمريرات الكمبيوترية

الامام زين العابدين (عليه السلام) عنقود مرصع

إشارة

سرشناسه : كتاني، سليمان
عنوان و نام پديدآور : الامام زين العابدين عنقود مرصع / سليمان كتاني
مشخصات نشر : بيروت: دارالروضة ، م ١٩٩٣ = ق ١٤١٤ = ١٣٧٢.
مشخصات ظاهري : [٢٧٤] ص
وضعيت فهرست نویسی : فهرست نویسی قبلي
موضوع : علي بن الحسين (ع)، امام چهارم، ق ٩٤ - ٣٨ -- سرگذشتنامه
موضوع : علي بن الحسين (ع)، امام چهرم، ق ٩٤ - ٣٨ -- داستان
رده بندي كنگره : BP٤٣/ك ٢الف ٨
شماره كتابشناسي ملي : م ٨١-٩٣٦٤

استشارة المراجع

تاريخ طبری، لأبي جعفر الطبری تاريخ العرب، لفيليب الحتي مختصر تاريخ العرب، للسيد أمير على أعيان الشيعة، للامام السيد محسن الأمين الامام زين العابدين، لباقر شريف القرشي في رحاب الصحيفة السجادية، لعباس علي الموسوي زين العابدين، لعبد الرزاق الموسوي المقمم [صفحة ٧]

للمؤلف

الامام علي، نبراس و متراس فاطمة الزهراء، وتر في غمد محمد شاطيء و سحاب يسوع أبد الانسان لبنان على نزييف خواصره جبران خليل جبران في مداره الواسع، مسلسل تلفزيوني مي زيادة في بحر من ظمأ، مسلسل تلفزيوني أمل وياس الجذور الامام الحسن الكوثر المهذور الامام الحسين في حلة البرفير ميخائيل نعيمة بيدر مفطوم جوزة الدب، قصة غزاله قاع الريم، قصة الامام زين العابدين عنقود مرصع محاكمة هارون الرشيد، مسرحية مخطوطة المهلب بن أبي صفرة، مسلسل تلفزيوني مخطوط [صفحة ٩]

كلمة شكر

انها موجهة للمستشارية الثقافية للجمهورية الاسلامية الايرانية في بيروت بشخص صاحب الفضيلة الشيخ محمد شريعتي. للمستشار الفاضل يد جلي في اخراج هذا الكتاب من دائرة العتمة الى حيز النشر - انها المهمة الجليلة التي تعني بها الجمهورية الاسلامية الايرانية في شرقنا العظيم، لجعل الفكر في مهب الانفتاح، و ربط الاسلام المؤمن بامدائه المتوسعة بالفهم و الخير و المعروف. يا للعظمة في الامام علي، يربط ايران الجوار برسالة الاسلام المنفتح، و يفك الانسان من عبودية الاسار، فاذا بالملكة الأسيرة شهزنان بنت يزدجرد بن انوشروان، تعانق بالزواج سيد الجنان الحسين بن علي، بكر الشهداء في حقول العنفوان، و تنجب أول امام دعى بابن الخيرتين: الخيرة الفارسية و الخيرة العربية. علي بن الحسين أو الامام زين العابدين، هو عنوان هذا الكتاب، تزينه الطباعة بمجهود ملون بزهو الانفتاح. فشكرا [صفحة ١٠] للمستشار محمد شريعتي، يمسح كفه بمجد الحرف، و ينشر أطياب الجنان. المؤلف [صفحة ١١]

الى القارىء الحكيم

الى القارىء الكريم و أنت دائما وجهتى و عمادى أرجو أن تأخذ كتابى هذا فى الامام زين العابدين مترابطا بحدود ثلاثة: ١ - اعتبار الأدب فيه من أجل أناقة تصوير الفكرة و جعلها فى منزلة المحسوس. ٢ - اعتبار الخيال فيه من أجل تنزيل الواقع فى اطار الحدث. ٣ - اعتبار الحوار فيه من أجل احياء التاريخ و جعله يتكلم من واقع ما يضمّر. و لكم شرك و احترام المؤلف سليمان كنانى [صفحہ ١٣]

تقديم

بقلم السيد محمد حسين فضل الله الحمد منه و سلام على عباده الذين اصطفى. فى سيرة الامام على بن الحسين «زين العابدين» أكثر من عالم مفتوح على الله و على الانسان و الحياة، و أكثر من أفق منطلق بالفكر و الروح و الشعور و الحب الالهى، و العرفان الروحى، و أكثر من ساحة مليئة بالقضايا الأخلاقية، و الأجواء الانسانية، و المناهج الحركية و هو - فى ذلك كله - يمثل وحدة تربط بين كل هذه العوالم و الأفاق و الساحات. لأن الانسان الذى عاش مع الله معنى العبودية الخالصة له أمام ألوهيته المهيمنة على الأمر كله. فكانت مسؤوليته - فى انسانيته - احدى مظاهر هذه العبودية، و بذلك التقى بالانسان فى كل مواقعه و انفتح على الحياة فى كل مجالاتها، فكان الفكر هو سر ارتفاع الانسان فى مستوى المعرفة التى تطوف به فى أفاق الله، لتمتد معه فى أسرار الحياة فى ظواهرها الكونية، فى سنن الله فى الكون، و فى ظواهرها الانسانية الفردية و الاجتماعية، فى سنن [صفحہ ١٤] الله فى الأفراد و المجتمعات، و هكذا اكتشف اروح فى البعد الانسانى السائر الى الله فى عبادة شعورية تهز الأعماق و فى حب الله يغمر الكيان كله فيذوب الانسان معه فى أجواء العشق الالهى، الذى يسمو الانسان به و يصفو و يرق فيعيش الصفاء كله و النقاء كله فى اطلالة على الحياة، و فى استغراق فى العالم الآخر فيما بعد الموت، حيث الحياة الجديدة التى «لا عين رأت و لا أذن سمعت و لا خطر على قلب بشر» «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قره أعين». و مع الله فى الأجواء الروحية العبادية الفكرية، لا بد من قاعدة أخلاقية للسلوك يقف الانسان عليها ليتطلع الى الله من موقع أخلاقى ثابت، أصله ثابت و فرعه فى السماء يؤتى أكله كل حين باذن ربه و ذلك من خلال استيحاء أخلاق الله فى صفاته العليا و أسمائه الحسنى على هدى الحديث المأثور «تخلقوا بأخلاق الله» ليكون الانسان بذلك انسان الله فى روحية الأخلاقية، و أخلاقه الالهية. و مع الله، يكتشف انسانيته فى حركة المسؤولية فى حياته لينفتح على الآخر فى آلامه و مشاكله و قضايا و حاجاته و أوضاعه الخاصة و العامة و لينطلق معه فيكون ايجابيا فى حركته فى اتجاهه حتى لو كان الآخر سلبيا معه، كما نستوحى ذلك فى الخط التصاعدي الذى يرتبط بالأفضل و الأكمل و الأحسن، ليعارض من غشه بالنصح و يجزى من هجره بالبذل و يثيب من حرمة بالبذل و يكافى من قطعه بالصلة و يخالف من اغتابه الى حسن الذكر و يشكر الحسنة و يغضى عن السيئة، و يكره ظلمه للآخرين كما [صفحہ ١٥] يكره ظلم الآخرين له انطلاقا من رفض المبدأ كله من نفسه و من الناس. و هكذا تكون الحركة الانسانية فى خط المنهج القائم على العدل و الاستقامة و الحرية لتكون الحياة أقوى و أقوم و أكثر انفتاحا على الحق و الخير و السلام. و فى ضوء ذلك قد تكون هذه السيرة بحاجة الى دراسة توثيقية واسعة تقف أمام كل هذه المفردات التى يحفل بها تاريخ هذا الامام العظيم، لتستوحى منها أكثر من خط فكري و أخلاقى و روحى و اجتماعى على مستوى النظرية فى النهج العام، و لتلتقى بالخطوط التفصيلية فى حركة السلوك العملى فى هذه السيرة على مستوى التطبيق، لتجد الانسان تجسيدا للقيمة الروحية المثلى و لتكتشف فى عمق هذه القيمة و امتدادها عمق هذا الانسان و امتداد أبعاده فى السر الكامن فى الفكر و العقل و الروح فى مداها الواسع. و قد يفتح الدارسون فيها على الكثير الكثير من مفردات الثقافة الاسلامية فى المسألة العقيدية و الفقهية و العرفانية و الاجتماعية و الأخلاقية بحيث تتمثل لك الثروة العلمية الواسعة الممتدة فى واقع الحياة كلها على خط الاسلام. و اذا درسنا الشخصيات التى روت عنه و تتلمذت عليه و عاشت فى مدرسته فاننا نجد فى ذلك كله أنه كان - فى عصره - الوجه الأبرز و الأكثر اشراقا و تأثيرا فى الثقافة الاسلامية آنذاك. و ربما كانت مشكلة

بعض الباحثين أنهم يتمثلون في [صفحة ١٦] دراستهم له الوجه الحزين الذي يعيش بكائية الألم في ذكرياته الأليمة المفجعة للمأساة الكربلائية التي وعى كل تجربتها المؤلمة القاسية التي تهب الشعور كلها في عمق احساسه لتحوله الى فيض من الدموع المتفجرة بالحزن المأساوي، و لكننا لا نجد ذلك فيه على مستوى الظاهرة في معنى الشخصية، بل قد تكون على مستوى اللحظات الطارئة التي قد تحمل في طبيعتها بعض الحاجة الى الاثارة والتذكير من أجل الاستفادة من صورة الحزن في الذكرى لاستعادة القضية في الوعي الانساني بعمق وامتداد يوحيان بالعقدة الحركية التي يتحملها كل الناس الذين كانوا لا يزالون يخضعون للحكم الذي صنع المأساة واستمر في ممارساته التي انطلقت حركة المأساة التي عاش الامام الحسين عليه السلام ثورتها الاستشهادية، من أجل الاحتجاج عليها. اننا عندما ندرس موقف الامام السجاد في مجلس ابن زياد ويزيد، و في حواراته في الطريق الى الشام، و في حديثه، قبل ذلك مع السيدة زينب، فاننا نجد الهدوء القوي، و الصبر الجميل و الوعي المنفتح على الموقف، بالدرجة التي قد لا تجد لديه أية دموع ليسكبها على المأساة القريبة من تلك المرحلة. اننا لا نستطيع أن نتصور الامام جازعا باكيا بالطريقة التي يستهلكها بعض رواة التاريخ الذين يريدون تحريك الاثارة العاطفية من دون دراسة للأسس الأخلاقية القويمة التي تركز عليها شخصية هذا الامام، و الأئمة من أهل البيت عليهم السلام التي ينطلق الصبر ليكون في مستوى الأساس الذي تركز عليه الشخصية في جمعي جوانبها. [صفحة ١٧] و هناك - من الباحثين - الذين يتحدثون عن هذه الثروة الروحية الدعائية التي تمثل الصحيفة السجادية، كما تمثل مجموعات كثيرة متناثرة في أكثر من كتاب، فيرونها أسلوبا جديدا من أساليب الدعوة الى الله و الاصلاح الاجتماعي، من خلال ما تتضمنه، هذه الأدعية، من اشارات فلسفية، و نظرات اجتماعية و مناهج أخلاقية، و احياءات روحية، و خطوط اسلامية، لينطلق الناس - من خلال الدعاء - في الانفتاح على كل هذه القضايا، ليفكروا و يهتدوا و يتحركوا نحو الأهداف الكبرى التي يستهدفها الاسلام في فكره و شريعته و حركته. و لكننا - في الوقت الذي نقدر فيه هذه الرأي - نتصور أن الأدعية كانت نهجا اسلاميا في عبادة الله، و التوجيه الذاتي الروحي، في الأسلوب القرآني، و في السنة النبوية الشريفة، و في تراث الامام على و الأئمة من بعده عليهم السلام. و لم تكن حالة متكلفه على طريقة الكتاب و المؤلفين في انتاجهم الفني بل كانت حالة عفوية وجدانية في الانفعال الروحي العبادي الذي يعيشه الانسان بين يدي الله، في خصوصياته الذاتية الايجابية منها أو السلبية، أو في صفته الانسانية التي يتجرد فيها الانسان عن خصوصية ذاته في سلوكه الشخصي، ليتحول - بين يدي الله - الى انسان يحمل في انسانيته كل خطايا الانسان و كل تطلعاته، تواضعا لله، و ذوبانا في حبه، و استغراقا في عظمته. ان القيمة الفنية المبدعة في أدعية الامام زين العابدين عليه السلام، في الفكرة و الأسلوب و العرض و جمالية الجو و الايحاء و اللفتة و الايماء، و روعة الكفرة. [صفحة ١٨] ان هذا كله يوحى بأن الامام كان يدعو من كل روحه و قلبه و شعوره و كل وجوده و كيانه، تماما كما هو الاحسان العفوي الذي يعيشه الانسان العابد الخاشع الخاضع بين يدي ربه. و لكن هذا لا يمنع أن يجد الناس فيها نتائج الوعي الروحي الأخلاقي الاجتماعي في المسألة الاسلامية، لأنها تمثل احدي نماذج الثقافة الاسلامية في حركة التوعية العامة التي يجد فيها المؤمنون الغنى الروحي في التجربة الدعائية العبادية من خلال الشكل و المضمون و الجو و الحركة و الانفتاح. و هناك نقطة أخرى - بالاضافة الى هذه النقطة - و هي أن الواقع الذي عاشه الامام في حركة الدعوة، لم يقتصر على الدعاء بل امتد الى أكثر من أسلوب و انفتح على أكثر من قضية، و تحرك في أكثر من موضع كانت تجد في تراثه الكثير الكثير من المفردات المتحركة في واقع الانسان كله، مما يعني أن الساحة كانت تتسع للكثير من النشاطات الاسلامية من دون أية مشاكل سلبية، في هذه المجال. اننا نعتقد أن الامام السجاد لم يدرس دراسة شمولية على مستوى ملاحظة كل نتاجه العملي و الروحي و الحركي في تحليل عيمق دقيق شامل، الأمر الذي يفرض على الباحثين مواجهة هذه المسؤولية في تجارب متنوعة متعددة، من أجل الوصول الى معرفة عناصر هذه الشخصية الاسلامية الكبيرة، بعمق و وضوح و شمولية. [صفحة ١٩] و هذا الكتاب تجربة أدبية فنية في اكتشاف العناصر الكامنة في عمق هذه الشخصية، من خلال ملاحظة الجذور التاريخية التي عاشها هذا الامام العظيم، في أجواء جده و عمه و أبيه، و في الفترات التاريخية الصعبة التي جلبت الكثير من المشاكل و الآلام للخط الاسلامي الأصيل، في محاولة للسير مع مفردات هذا

التاريخ كنقاط مضيئة على التأثيرات التي تتمثل في الجانب الفكري والشعوري والحركي في حياته. وهي تجربة حية في جمالية الأسلوب، وترف الكلمة، وسعة الخيال وعمق الاحساس، واستكشاف الآفاق البعيدة بحيث نشعر بحركة التاريخ في كل سلبياته وإيجابياته، وبكائياته وصرخاته، وفي كل مشاكله وقضاياها، وحربه وسلمه، وتتمثل شخصياته في وجدانك كما لو كانت ماثلة أمامك في كل حركتها التي تضج بالصراع الدامي الذي حول الساحة إلى دموع ودماء. وقد نلاحظ على كل التجارب الأدبية الفنية أن الكاتب قد يقول الشخصية التاريخية ما لم تقله مما قد يتبناه من أفكار وآراء وكلمات بحيث لا يتناسب مع الخط العام لفكره وحركته الأمر الذي قد يخلق بعض الارتباك لصورة الشخصية في الوجدان الفكري. وقد استطاع الكاتب - قد نهايه الكتاب - أن يفهرس «رسالة الحقوق» و«الصحيفة السجادية» في عناوينها البارزة، وأن يشير إلى بعض إحياءاتها الفكرية والاجتماعية والروحية. انني أقدر للصديق الأديب سليمان كتاني أدبه وفنه وشاعريته في خياله وأسلوبه كما أقدر له هذه التجربة التي إذا لم تستطع أن [صفحة ٢٠] تمنحنا الصورة الميدانية الواقعية للإمام السجاد فقد منحنا بعض الملامح الرائعة للأجواء التي عاشتها هذه الشخصية المميزة. إنها أسلوب جديد في كتابة السيرة الذي قد تجد فيه ما لا تجده في الكتب المنهجية لكتابة السيرة، وإذا كنا نتحفظ معه في بعض الاستيحاءات وطريقته في الاستنتاج وبعض أفكاره، فإن ذلك لا يمنعنا من تقدير جهده راجين لكتابه المزيد من الرواج والانتشار، مع كل المحبة والانفتاح. ١٨ صفر ١٤١٤ هـ محمد حسين فضل الله [صفحة ٢١]

الكلمة الأولى

يا أيها الإمام الغارق في معجن اللطف ويا أيها السيد الأنيق الساجد فوق القرب آرائي الآن أنقر وترى اليك، وهو وتر ينغم فيك بعد أن نغته بطيب حوشته - منك - وأنا أتلقف حروف كل صحيفة من صحائفك المبلولة بذلك! يا لذلك الكبير يسحقك بين يدي ربك! ويا لربك الأنصع والأكبر، ينشر ذل الطيبين عزا فوق صهوات القناطر. واني الآن آتيك - لو ترى يا سيدي - من ذات الباب الذي دخلت منه: مرة للاختلاء بعمك الحسن «الكوثر المهدور»، ومرة أخرى لتذوق طعم العز المقطور من رذيلات الدم المفجور من وريد أبيك الحسين وهو «في حلة البرفير» - وأيضا من ذات المحراب الذي خشعت على لمسات عتباته وأنا أطيب نفسي، حيناً بين يدي جدك «النبراس والمتراس»، وهو السجاد مثلك فوق القباب، وحيناً آخر تحت ناظري جدتك الزهراء، الواقفة فوق لوحات الميدان، كأنها قضيب من رمح، أو كأنها «وتر في غمد»، ولكنها - أبداً - ملفوفة بكل قمصان أبيها! أما أبوها فهو جدك الأعلى، النازل على الأرض من [صفحة ٢٢] أفاجيج السحاب، اني رأيت انه هو «شاطيء وسحاب». هؤلاء كلهم - يا سيدي - وهم خمسة خشع تحت القباب - قرع الباب عليهم قلبي، ودليلي انه بهم قد طاب: ارتياح في نفسي استمر به مغموراً، وكلمة من طيب كانت تجيشني - مرة اثر مرة - من أولياء آل البيت، كنت أجد فيها كل الثواب. ان آل البيت كانوا - دائماً - الداعين ريشة الأقدام للابتراء من مثل هذه الساحات. وأنت، يا رابعاً في نول الإمام، ويا سادساً أنقر عليه الباب - فاني أرجو أن يكون لي دخول مقبول تحت قناطرك الظليلة. عساي أراك كيف تنام بعين، وكيف بعينك الثانية تصحو فلا تنام. وكيف تغمر ألماً من مضيض التراب بأمل منسوج من فتيل السحاب؛ وكيف تشرب القرآن لينضح من تجعدات جبينك، ومن تدرنات ركبتك، ومن مدارج طويتك، ومن أشعة عينيك. وكيف تشمي - هنا - مشى الهوينا، بينما تبدو هناك، رشيح العدو خفاق الضياء. عساي - أعود فأقول - أصيب فليك مدى الملم به حروف الكلمات، فاسمع أذني صدى ما حوش عيني من نفحات، فاذا كنت غني الجمع منك وفيك، فاسمح لي بنوم قرير الوسادة - أو اذا كنت شحيح البلوغ، فارشقني بهزة من ارق أعدل بها ما قصرت عنه عين الرؤى، وعين النفس، وعين التوق إلى واحات الصفاء. سليمان كتاني [صفحة ٢٣]

المقدمة

على بن الحسين، و الامام زين العابدين؟ هل هما اسم واحد لجهاز واحد؟ أم ان هناك مركبا مزجيا أذاب الموصوف في الصفة، في عملية تفاعلية اندماجية أنيقة المسار، راضت الاسم و امتزجت به، ثم ابتلعتة ليكون للصفة بروز اللون في جهرة المطلق! انى أرى ذلك في حقيقة اضمارى، لأنى لمست هنا بين موصوف و صفة مسافات رقت الاسم المبني من لحم، و دم، و غدد بيضاء، و راحت تتقلب به و هو يمشيها من مقطع الى مقطع و من مقلع الى مقلع، حتى صهرته بعرقه و أتعبه و آلامه، فاذا هو - فى طرف الميدان - ثمر أنضجته الشمس، و الريح، و خفقات الغمام، و عطر خلصته أقمار الليالى من شهوات البراعم و من أصباغ الرغام. تلك هى واقعية الحال... قبل أن يكون على بن الحسين زين العابدين، كان عليا بن الحسين، بلا لون من ألوان العبادة... و بعد أن مشى ردحا فردحا: تحت عيني جده على، و فى حضن عمه الحسن، و بين يدي أبيه الحسين، لم يبد عليه انه صار امام [صفحة ٢٤] العابدين، ليس لأن الامامة لم تكن قد ألفت على كاهله ثقلها المرزوم - فهو لها، على الرغم من أن التقية كانت تلجلجهم جميعا - بل لأن السمافة المبدعة التى لم تكن قد ألفت بعد كل وزنها عليه، هى التى ما زالت بانتظاره فى مكان الطريق! بعد أن يبلغها، و يمشيها بعرق و دم، و يشربها، و تعجنه تحت مياسمها، ساعتئذ يصير - و من دون شك - أمير العابدين. و ماذا تعنى هذه الصفة الواسعة المضمون؟ أو بالأحرى ما هى خلعتها علينا، نحن المتشوقين المنتظرين حفظ حروف الكلمات التى كان يتعبد به الامام، امام عرش سيد المتعبدين؟! بحكم الطبع أن فى صلوات التعبد راحة للمؤمنين، و مزيجا من حرارة و بلسم للمحرومين و المكرويين. و كثيرا من انسحاق للمرضى و المظلومين و المضطهدين، و ان فى كل نوع من صلاة أملا بعطف و شفقة و نجاة، و ان الايمان الراجح برب الخلق هو المدبج كلمات الدعاء، و الملونها بالحرارة، كما و ان راحة ضمنية تشدد المصلى و تؤمله بالاستجابة. و لكن زين العابدين لم يبدع صلاة ما سجد بها من قبل، بل انه سحب الصلوات كلها من قيود الحرف، و جعلها تنبض بالمشاعر المتحركة، لتكون عقلا، و لتكون علما، و لتكون و حيا و فهما و روحا و حسا، و لتكون التهابا بالحق، و نورا بالايمان، [صفحة ٢٥] و لتكون حبا و ثوبا للقلوب البريئة، و لتكون بغضا يتفل الحقد فى وجوه الطواغيت، و يرحمهم بأوبئة مبيدة، و لتكون بركة و حورا من جنان للمطهرين، و لتكون نقمة و زفيرا من جحيم للأبالسة المجرمين العاهرين. أجل - لقد كانت صلواته كله قالبا من فن، بحروف من أدب موشوم يسمو به النبل و صدق الحس، و يميزه البعد الفاصل بين الحق و الباطل، فى لون من العمق الفريد الذى يقدم نفسه بنفسه، لمجتمع تنقصه الصلاة الكبيرة، حتى يعود الى لملمة جراحه التى فجرها فى صدره الكفرة المجرمون. ان المسافة الطويلة التى استكمل مشيها على بن الحسين و التى غمرته بكل ألوان الأتعاب و الأوصاب، و التى نزلت به الى أغوار النفس، و اندمجت بكل طواياها، هى التى فجرت فيه المواهب، و نقلته من الاسم المجرد الى الصفة الزاهية المدللة بلونها، و هى التى جعلته يكتشف معين ذاته المدموجة بالواحاحات التى دلنا اليها جده الأكبر، لتكون نعيما لهذه الأمة، فوق هذه الأرض بالذات، لتكون جنة لنا ترينها و تصونها التقوى، و لا يعزها الا الحق و الصدق و النبل و روح المساواة. ان الصفة التى لبسها اسم على بن الحسين و تسربل بها كما يتسربل الشوق بقلوب عاشقين، هى التى تغمرنا الآن بسناها، و هى التى تجعلنا واقفين على عتبة المحراب نسأل: كيف كان لك [صفحة ٢٦] أيها الامام أن تصلى، و أن تملأ الدهر بالصلاة و الدعاء؟ و لماذا صغت الحروف و نقشتها بمثل هذا الدل المسلسل و المنور بالجمال؟ أليست الصلاة تأملا عميقا و صمنا غائرا فى حميم الذات؟ فلماذا رحت تحبر مئات الصفحات بآلاف الجمل و عشرات ألوف الكلمات؟ أليكون ربك العليم الفهيم الواسع الظن، و البهى السمات، لا- يرضى الا- بذل العباد محفورا على ألواح السجلات؟ أم انك رحت هكذا أيها السيد، تنقش القرآن فى صميم الذات، حتى يصبح حيا فى النفس، و حيا فى البال - حتى يصبح خشوعا فى الطوية و حضورا فى السجية: سدا لجوع، و ريا لعطش، و طريقا لمأرب، و بلوغا عفيفا لأى صواب. يبدو أنك كنت كل هذا أيها المتمنطق بالجسود الرفيع تحت القناطر و فوق القباب - يبدو أنك امام ترسل بنهج مدرسى قويم الدرس و سداد الحساب - يبدو أنك رسالى من طراز بهى أدرك أن رسالة ابن الغار هى المنجية الأمة من الدمار.... و هى البانية بالعزم، و به الجامعة بالتوحيد، و هى الصائنة بالمثل العفيفة و التطبيق الحصيف، و هى الخاضعة بين يدي خالق قدير عظيم رحيم؛ يلف الصدق بالتقوى، و الجمال بالعفاف، و العدل بالحق، و الحب بالوفاء.... يا للأمة تأخذ منها و ترد

اليها أو شحة الامامة.... و يا [صفحہ ٢٧] للامامة فيك تزرع العلم في العبادة، و توزع الصلاة على الأفواه... و يا لقلمك كيف يغرف من ذاتك أدب المران في مدى الانسان، يسلسله حقوقا و معارف، و يحدده صيانات، من أجل مجتمع مبني بالصفات، و مهدوم بتحطيم الصفات. ألا تسمح لنا أيها السيد بتتبع خطاك، لتتفهم مبتغاك؟ و هل يكون لسياسة الأمة تسديد خطوات ان لم تدرك - هي بالذات - كيف جمعت قدميك - لها - من طول المسافات: و المسافات؟ أليست - فعلا - تتألف من الخطوات التي نمشيها أو نمشي بها في حياتنا فوق الأرض؟ فلنتبصر قليلا- في بسطة التجريد: قد نكون في حياتنا أكثر من مشائين، أي قد نكون - حتى - عدائين: و لا يكون لنا من عدونا الناشط أي نسج لأي مسافة: و معنى ذلك - كما نفهم - أن المسافات هي أبعاد أخرى لا نمر ببعد واحد منها، و نحن حتى مقعدون، ألا و يترك فينا هذا البعد نقشا تعيه ذاتنا، و تمتلئ منه طويتنا، و تتلون به أسارىنا، و تفصح عنه مجالاتنا في التعبير. و المسافات؟ بمعنى الجمع، أليست - هي - حبال المعاناة؟ تقتصنا و نحن نصطدم بها، فنمتصها و هي تغشانا؟ انها هي التي ستكون خميرة فينا، ينمو بها عقلنا، و وعينا، و حسنا، و مدانا. ان المجالات الروحية فينا هي الأشد تأثرا بها، و الأزرخم تعبيراً عنها، و هي - وحدها - التي نعينها مسافات تبرز منها شخصية الانسان. [صفحہ ٢٨] و اسمح لنا أيها السيد، أن نتكشف أبعاد مسافاتك، حتى يستقيم لنا فهمك، و حتى يتنور لنا صدق مداك. أليست المعاناة - معاناتك - هي التي اختمرت قيمة فيك، برزت في فهمك، و انجدلت في صلواتك؟ أليست هي التي كانت نقوش الظل في خلود صفاتك؟ [صفحہ ٢٩]

تمهيد

لقد عزمت على أن أقرع الباب و أدخل الى الامام زين العابدين... كنت أعلم انه من سكان مدينة يثرب، و لكنني كنت أجهل أين تقوم العمارة التي ينزل فيها، و أي واحد من الشعاب يؤدي اليها... فوجهت اليه هاتفا من توقي و روحى... و سريرا ما سمعت منه بوادى الترحيب: - ليس عليك أن تضيق في أزقة المدينة. بيتي شاق في صدر المكان. يدلك الشكل اليه. أول ما يأخذك منه مدخل و اطيء ضامر... لا يتمكن من عبوره من لا يروضه السجود... فالتعبئة حرف من مدى و الممرات حروف من - صعود! نزلت هذه المقاطع في بالي مغلفة ببسمة زادت على روعه [صفحہ ٣٠] للغز... و تلفت فاندعشت من عمارة واقفة في الصدر - اطلالتها نحيلة في مدخل هزيل، و بعتبة لا ترتفع عن الأرض الا بضعة أشبار... و لكن المدخل المتواضع هذا، فانه يأخذ - قليلا قليلا - بالارتفاع، مع امتداد العمارة، حتى يبلغ في طرفه الشرقي ارتفاعا شاهقا كانه من أنواع القباب. أحنيت هامتي و دخلت - بعد عدة خطوات شعرت بان الممر قد علا سقفه، و شعرت أيضا بانه قد اتسع، ثم بدأ يتخلص من شحوب النور... و هكذا - بعد لحظات - تمتعت براحة ضمنية في وسط قاعة عميقة السكون، و ان تكن خالية من الرياش، و لكنها في سقف تتزاحم اليه - من كل الجوانب - أشعة الضوء، و هكذا فأنت في لذة جديدة تبحث: من أين لهذه القاعة أن تجذب الى سقفها أسلاك النور؟ و تقدمت صوب معبر محفور في الجدار، مسدول عليه سجع سميك، و من لون الليل، و ما كدت أزيحه بكلتا يدي حتى انهمرت على عيني أضواء خلقتها هابطة من سماك رفيع: ثلاث قباب مستديرة، تتساند في الفضاء، تظللها - على وسع العلاء - قبة رابعة شاهقة، تظنها مسبوكة من عسجد منير... انها من هالات لا تدري من أين تسخو عليها مسارح السماوات!!! هل كنت مخطوفا الى بهاء؟ أم كنت مشدودا بخيوط العسجد؟ و لكنني كنت أسيرا أفنش عن أرض غير هذه الأرض، [صفحہ ٣١] ترسخ فوقها قباب عدن... بعد لحظات - من يدري كم هو طولها - وقعت عيني على ساجد تحت القباب، يغلف نفسه بالأشعة و يرفعها مرايا مرايا... عرفته... و لكنني خجلت من أن أسجد قربه... لأن سجوده كان من النوع الصقيل. قد يحسب الخيال شفيعا لمثل هذه الصورة البيانية أرسمها في امامنا المميز زين العابدين. و لكنها - مع مطلق الحال - صورة تعكس الواقع الحياتي الذي اندمج به الامام. فعلى الأصغر انما هو الرابع في خط الامامة، و لم تتوش امامته الا بذات الوشى النابع من ذات المصدر! و المصدر واحد يتغير عهده، و لا- تتغير أرومته... أي أن العهد هو الملون بحورف الزمان، اما الجوهر فهو الموصول بركيزة الأصل، ثابت عليها، و مستمر بها، و تلك هي حدوده الأصلية، و لولاها لضاع من أفق الزمن، و لما كانت له الصفات البليغة

التي وشته بها حتيمة ثمينة الرجحان. ذلك هو زين العابدين تحت قبة سخيّة من قبب الحق، رفعها جده العظيم فوق قناطر ثلاث: واحدة دفعها دفقا سنيا باسم جده على الراقد خالدا في مسجد الكوفة - و واحدة نزلها تنزيلا بهيا من ضلوع الجنة، رسمها باسم عمه الحسن النائم سيدا في حوض أمه فاطمة في ردهات البقيع، و واحدة مقطورة من الدموع الحمر، باسم سيد من أسياد الجنان، هو أبوه الشهيد الأمثل والأروع، المغطى كربلاء ببرفير أزهى من ضلوع المجد! [صفحة ٣٢] أى واحد من أربعة يمكن عزله من ملف يدور به و عليه قسطاس الامام؟ أى واحد منهم لم يشده بالرسالة، و النهج، و العزم الملون؟ أن الجوهر واحد كما قلت، لانه ركيزة من معدن أصيل لا يمكن أن يتبدل أو يتطور... اما التصرف من أجله في الصيانة و التسديد، فهو الذى يلبس زيا متناسبا مع ساعات العصر، و اهتزازات ريحها في الهمود و الاقلاع. لقد كان التصبر و التروى خيطين و حيدى غزل بهما الامام على عباءته العفيفة، و لما انضغطت بوجهه فتحة الريح، واجه الميدان بصدرة دفاعا عن أمه هو وليها الأول، تثبيتا لها عن صدقه و ولاته، و لقد قطعت الساحات وريده، و كان سعيدا - هكذا - بانضباط خلوده. اما الأحداث فكانت وفيرة في أيامه - و أن تكن كثيئة بكفرها و جحودها - فقد ملأها و تحداها، و لونها بصموده. كذلك يمكننا القول عن العهد الثانى الذى آل الى الامام الحسن، فانه كان استمرارا في تميم النهج، و لقد نسجت الأحداث نسجها الآنى، مما جعل الامام يتصرف من وحيها و ضغطها... أكان في مقاومة ريحها، أم في مطاوعتها حيث تستريح من اقلاعها الأهوج! و كلنا نعلم أن التصرف كله كان من نسيج الاحتياط لصيانة أمه من الانفراط. و لكن الأحداث ما غيرت لا خيطها و لا- مكوها مع العهد [صفحة ٣٣] الثالث الواصل الى الامام الحسين - و لقد حاول أن يتصرف، و لكن الريح سدت عليه كل المجارى! ان سياسة الخمسين سنة ألفتهم جميعا في قبضة يزيد، و رمت الرسالة على شديق خليع! و كان الرفض - وحده - بوابة التصرف، حرك به الحسين ضمير الناس، عن طريق الالباء و العنفوان، بتسليم الوريد لمقطع الشهادة... ان العنفوان وحده يبقى للأمة، تشتري به حينواتها المجيدة التي تعيدها الى ساعة الوصل. منذ مقتل الامام على، مرورا بتذويب الامام الحسن، و الامام الحسين يتقلب في ذل، تتجرر به - تحت عينيه - هذه الأمة التي استرجعها جده من غيبوبة خرقاء! و لكن الذل الذى يطول و لا يقتل، هو ذل الفحمة السوداء: تنام ليلا الطويل... و مع فجر بهي تولد لتبقى الى أبد حبة ماس!!! هذا هو كل ما مر به الامام الحسين، حتى انفجر - هالالا - بعد عشر في كربلاء. و جاء دور الامام الرابع. لم تقع عدسة عينه أبدا - على جبين جده الرسول - اما الثلاثة الآخرون فانه استوعبهم بعينه، و أذنيه، و ملامس أصابعه، و هم الذى ضمخوه: بالذكر، و الآيئة، و كل حروف الحديث، و هم الذين طيروه بأسرار العطر، و نقشوه بالفوح المقدس، و هم الذين علموه نقل الخطوات فوق المعابر السود، و امتصاص الحزن من ملامس السوء، و تغليفه بالفرح النفيس، و تقبل الضيم من ملاقطه المكروهة، و عرضه على أفق [صفحة ٣٤] فسيح تعيش فيه زهور المكارم. فعلا - انه هو هذا الامام - ما وصل اليه دور الامامة، الا بعد أن قطع ثلاثة و عشرين عاما من عمره و هو في مباركة الظل. لقد شاهد - بعينه و حسه المرهف - سقوط جده الامام الأول تحت سيف ابن ملجم!!! و لقد صعقته صعقا لعقة العسل، تيس بها عروق عمه الحسن!!! اما أبوه الآخر، فانه رافقه رفقة العمر، و رفقة الدهر... و شاهده - بعينه، و قلبه، و روحه، و كل ذله الأكبر - يتقطع و يتفجر، من دون أن يتمكن من تبليل شفتيه بقطرة ماء ضمن بها نضح القرآن!!! و لقد تخلص من برائن ابن زياد في الكوفة، و نجا من قبضات يزيد في الشام، و تم افرازه الى يثرب، حيث ستمتصه ساحة الحزن، من غير أن تكون له باع يمدّها الى حسام! لا يحلولى أن أرسمه، أو أن آتى اليه، الا من خلال هذه النقوش التي أسميها «نقوس الظل». انه عنوان الفصل الأول من هذا الكتاب في سيرة الامام زين العابدين التي هي تظهير أدبي لم تكتمل حلقاته الا بعد جلوسه في كرسي الامامة، و اعتماده على قوى الذات التي تم بها النقش النفيس، و رواح - من وحيها المتين - يبدع ذاته الثانية في التحامها بذاته الأولى. ان في التحام الذاتين تكاملا حيا في اظهار الشخصية المثلى بنسجها الذى ستتصرف به في نهاية المطاف. [صفحة ٣٥] سيكون عنوان الفصل الثانى: «ظل النقوش» - و تفسير ذلك أن النقوش التي حفرت عميقا في نفسية الامام، هي ذاتها - في فعلها الحاضر - مشتب به في حقيقة الابداع، و جلّت له خطوط التصرف. لم يبق للامام زين العابدين - و قد وصلت اليه الامامة بهذا الفراغ المفجع - الا أن يلجأ الى يثرب، يفتش عن زوايا يشرب فيها حزنه الكثيف! اما أن يظهر في الساحة و

يقول لها: ها أنذا... فان الساحة ذاتها كانت المقبوضة على نفسها لا تدري كيف تهرب عنها معالم النور! ان الخوف، والكبت، و التهديد، تسد كلها على القوم مجالات التنفس، و تضغطهم في لطوات الصمت العقيم! ليس في الساحة الا- الوقاية، و التصبر على الضيم... اما ذلك الذي يتحوّل في خفايا النفس، فانه الرهيب أيضا، لا يرجى منه خلاص يبشر بطمأنينة و هدوء! انه بغض، و حقد، و مفاعل تفجير الضغائن، و ليس فيها ما يصلح أمر الناس، أو يرشدهم الى صواب، بل ان كل ما فيها ليس الا معاول تهديم! يضرب بها عامل أخذ الثأر، حتى تنام كل المجاهيد في حفر التردى و مقابر الموت!!! اما الامامة - و هي المغمورة الآن بفداحة الأحران - فهي المسدودة عليها قبضات التصرف السليم... ليس لها السيف، و ليس لها الرمح حتى تزجر الخطأ و تقطع به باع و لسانه، و ليست بها صوابية التصدى و فرض حقيقة النهج، حتى ترمى سهمها و تعاقب المتعدى، و تطمره في كيده، و تكون - [صفحة ٣٦] بالوقت ذاته - لمامة شمل في توحيد الجماعة و صهرها في المجدل الصافي المنزه من أحقاد القبائل و ارتباطها بهمجية أخذ الثأر و صفائره المخزية! و عكف الامام على تفتيق ذاته من واحات ذاته... لقد أشرفت عليه كل المعادلات، بعد أن اتضح له أن الأمة التي هي ميدان الرسالة و مكانها الأول في التحقيق، هي التي تمر منها و عليها كل الخطايا، أو فلنقل كل الرزايا، و انها هي - بالذات - المتسدركة حتى تنقذ نفسها من حزن صبغتها به «براقش»، و ليست تنام «براقش» الا تحت ضلوع الانسان، فهي منه في منبت الخزي و الويل، يبتدعها له لبه المخبول بجهله الأبشع! ان الوعى - وحده - ينجى النفس من «براقش» و تطمر براقشها في محافر ذلها المكشوفة للعيان! أى شىء غير الحق يبنى مجتمع الانسان و ينجيه من انحطاطه؟ و أى شىء غير العفة، و الطهر، و الصدق، يجلو بها شعاب سلوكه؟ و أى شىء غير فقه الذات يدله الى رحمة ربه الرافع السماوات فوق رأسه، و الباسط الأرض تحت خطواته؟ و أى شىء غير العلم المؤمن بطاقات الخير يدله الى جنان المعروف، و ينهيه عن جهنم المنكر؟ و أى شىء غير التقوى يذلل النفس ليرفعها الى مجالات الجمال؟ و أى شىء غير الصلاة الكبيرة و البريئة يرفع [صفحة ٣٧] النفس و ينزهها من المعاصي، و ينورها بما لها و ما عليها من حقوق و موجبات، حتى تستقيم دروب الانسان معززة باناقات الروح، و مطيبة برفاهة الوجدان!!! هكذا راح الامام زين العابدين ينثر حروف أبجدية مسبوكة له على مشفرى قلمه الرزين، حتى يزرعها على كل صفحاته القدسية، فتنتج مواسم مواسم من صلوات، و أدعية، و سجدود رفيع، تتعلم قراءتها الأمة قراءة ترسخ في صلواتها، و سجدودها، و أدعيتها... و ترسخ - بالتالى - فى وعيها، و حفيظتها، و مناهجها، و سجايها، و مداركها، و كل سلوكها: ايماننا و تقوى، و انارة... سيكون للقسم الثالث من هذا الكتاب عنوان تلبسه الامام صفة مميزة له و هو: «زين العابدين» - ان العنوان هذا هو مطاف الصفة، تسربل صاحبها بعباءة من فن، تحترم العلم و تجله، فى سبيل تركيز الأمة على معادلات الفهم و الادراك، لتخليص ذاتها الانسانية من الجهل، و الحزن، و التردى، و الاستعاضة عنها بالوعى، و الفرح المؤمن، و التحقيق المنور... سيكون الامام زين العابدين تركيزا موجهة لأمة تعتمد العلم فى توجيهها الأصيل... و سيكون ابنه الامام الباقر استمرار المدرسة العلمية هذه، و سيكون حفيده الآخر الامام جعفر الصادق توسيعا باهرا لجده زين العابدين. [صفحة ٤٣]

نقوش الظل

مع الولادة

شاهزنان

لقد كان لتلك الليلة الطويلة صباح ضائع بين بسمه هزيله من فرح، و قبضة حزينة من هلع. فشهربانو أو بالأحرى شهزنان بنت يزدجرد بن أنوشروان، زوجة الحسين بن على، انما هي طريحة مشلوله بألم مخاض صعب المراس، لن يتركها تضع ابنها البكر الا محطمة مكسرة الجناح. منذ أكثر من خمسة أيام و الأميرة الفارسية ملقوطة الخاضرتين بموجبات ممضه من ألم تطرحها فوق فراش من شوك و تعب. لقد انحفر الألم حفرا بليغا فى عينيها و أسارير وجهها، و لقد تلاشت به و هو يلقيها بغلاله من زعفران، أما أصابع كفيها فهي

التي خدرها الارهاق مع هذا الليل الخامس الغائر الصبح في العتمة السوداء، فارتمى ذراعها فوق قماشات الغطاء، و تراخت أصابعها في كسل الانشلال، من فرط ما انفتحت و انقبضت و هي تتلقت بكل ما يلامسها، عله يريحها من أثقال المخاض. أربع من أشهر قابلات المدينة كن يتناوبن السهر حول فراشها في الغرفة الحزينة - و لكن الطفل المنتظر لم يلب أية عملية من [صفحة ٤٤] عمليات الاستنجاد، حتى يخلص أمه من آلام تعصرها عصرا، و بقي في عناده الأصلب حتى مطلع الصبح من الليلة الخامسة، فترك الرحم المنهوك و هو منهوك أيضا من شدة ما عاناه من وابل مغص دهك حشا أمه و أفرزه طفلا نحिला، مسمر العينين، غائر العينين، هزيل العنق، شاحبا» مكمدا. كان الحسين بتمشى ببطء مثقل بالنعاس في صحن الدار، في ذلك الليل الذي طال، و لم تخطه بعد تباشير الصباح. لقد كان مطرقا او حزينا - أنه وحده الآن في خضم من الآلام، فاخوه الحسن غائب عنه في جبهات القتال التي حركها و أشعل نارها الكافر الجاحد معاوية بن أبي سفيان!!! منذ ليلتين جاءه رسول من الكوفة من قبل أبيه الامام، ليأخذ اليه خبرا عن شهربانو الحامل التي كان قد بشرها من قبل بولادة طفل بهي يرتبط به خط الامامة، و به يستمر اسم على فوق الأرض، و به ستتتعش كل رسالة الأمه، أمه النبي الكريم محمد. و لكن رسول الامام الى ابنه الحسين بقي في المدينة منتظرا خلاص الأم من ثقل المخاض، ليأخذ الخبر المفرح الى الامام المصلى في محراب مسجد الكوفة، حيث سيتناوله بظبة سيف، مجرم أخرق، اسمه ابن ملجم!!! - مسكين أبي، راح يقول في مهجته الحسين، و هو مغمض العينين، و مسحوق النفس، و مشغول البال!!! ثم انتبذ زاوية الدار، [صفحة ٤٥] حيث توجد أريكة ممدودة يعطيها بساط من وبر الجمال. فجلس القرفصاء يتذكر أباه الامام - منذ أكثر من سنة مرت - كيف أنه حال دون بيع شهربانو كجارية في سوق الاماء، و كيف حررها و هي أسيرة حرب، و خيرها في أن تتزوج من تشاء من الأسياء - فأجالت عينها الكحلاء، و هي رضية سعيدة تنتقل في أرجاء الدار، بقوام و شيق، و قد ممشوق من شجرة بان... ثم مدت اصبع كف هليله بيضاء، و أشارت الى من تشتاقه عريسا لها، فقال الامام: - مبروك عليك يا شاهزنان - يا أميرة الجمال في مزغ ايران، و غزاله الحسن في لفته العربان. انه لك ابني الحسين و هو وافد اليك من تحت قناطر الجنة. فاحمليه و طيرى به الى هناء يهزأ بكل عناء. و ليكن لك منه من ترفعين به رأسك الى كبد السماء. لم تتجدد هذه الذكريات في خاطر الحسين حتى تلملم من مقعده و عاد يخطر في صحن الدار، و ثقل المناجاة يرنحه ترنيحا. - ألا نجيتني يا الله من مرارة فقدان؟! انى أحبها حبا وسيعا يا اله المحبين! انها وصلة شهية من طهر، و وصلة أنيقة من حب! [صفحة ٤٦] و وصلة سنية و بهية من جمال... اننى خائف يا الله... أن تفجعنى بها و ترفعها الى سناك... فليغض طرف الموت عنها يا الهى. و احفظها ساجدة معى أمام عرش بهاك. لم يتمم الحسين بحروف هذا الدعاء حتى خر ساجدا أمام باب الغرفة التي خرجت منها امرأة فارعة الطول، و نقيه كزهرة بلسم، و على صدرها طفل مخدر و لكنه يتنفس، و هو ملفوف بأقمطة سمراء، و ما أن لمحت السيد فى هبوطه الى الأرض، حتى هبطت قربه و هي تقول بصوت خافت مبلول بحنين: - الحمد لله يا سيدى... طفل ذكر يا مولاي... و سريعا ما أخذه الحسين بيدى مرتجفتين و هو يتمم: الحسين: و الامام يا غزاله... كيف هى الأم؟ غزاله: انها مرتاحة... صدقنى... و الحمد لله... بعد خمسة أيام ثقيلة كحجر الرحي، [صفحة ٤٧] و خمس ليالى منفرة كأفواه الوحوش!!! انها تبدو مرتاحة. الحسين: عساها تنجو يا غزاله. لقد سميتك غزاله... سعدا لك يا أم أطفال هذا البيت ان اسم الحبيبة بالفارسية شاهزنان و معناه بالعربية: غزاله... اذا نجت و عاشت شاهزنان، فسيكون لهذا البيت غزالتان... و ان لم يسمح ربك و ربى... فستلبثن أنت - وحدك - غزاله هذا الطفل الذى سيربو فى حضنك الطيب، ان اسمه منذ الآن على الأصغر... و ضم الحسين طفله - برفق - الى صدره. ثم ناوله حاضنته غزاله - ثم انحنى يقبل الأرض فى صلاة السر - ثم نهض... فتح الباب... و على رؤوس أصابعه دخل... لم يتقبل رب الساجدين صلاة الساجدين! انه - وحده - العليم [صفحة ٤٨] بوطأة الأحكام و لغة الأسرار، و هو الغنى بكشفها العلنى، و لكنه الفارضها مرانا فوق رؤوس الخاشعين! فسبحانه - كل مرة - يملى فيها حكمه المكنون. هكذا خطفت حمى النفاس شاهزنان، من دون أن يتناول الصغير على قطرة واحدة من ثديها المحموم. أما غزاله البيت - بحدبها الرؤوم - فانها ذابت فى الرضاع المقدس، و توسع صدرها بالحنان الريان، من دون أن تعلم أن الذى تقطر فى حلقة العافية و الأود هو الذى سيكون - فى يوم آت - اماما سخيا و

تقيا، يصلى عن الناس جميعا حتى يتعافوا من مذلة الكفران... تماما كما فعلت من قبل حليمة السعدية اذ لقت ثديها طفلا من دون أن تدري أنه سيكون نبيا يسكب الله فى طوية الانسان!!! [صفحہ ٤٩]

غزاة

و كانت غزاة فى الأيام الأولى شحيحة الدر؛ و هكذا كانت حليمة السعدية مع طفلها الذى حملته معها من المدينة الى طنبا المشدود تحت شمس البادية. لقد كان در صدرها فى المبتدأ شحيحا، و لكنه راح يغزر من يوم الى يوم، بمقدار ما كان ينمو حسها و هى تحرق فى الشفتين الممتصتين حلمتى صدرها: كم أنهما عذبتان تغدقان عليها شعورا لذيذا يوسع فيها الحب و تذوق الجمال، تحت هذا الجبين المفسوح بالمعاني الكبيرة الغائرة فى سحر من الابهام. هكذا أحبت السعدية طفلها الصغير، و هكذا أرضعته لبن النبوة، ألا يصح هكذا أن نقول؟ أليس الوجه المشع بالمعاني النفسى - الروحىة الهاجعة فى التقاسيم، هى التى كان لها انسكاب تخميرى فى العينين اللتين كانتا فى حليمة سلكين يوصلان الدفء، الى جسمها الحساس، فتأجج بالحب و تتوسع غدتا صدرها، و تتندى بالانصهار و تتلون روحها الذكية؟ و ذلك كله من دون أن تدري و من دون أن تعلم؟ انها مفاعل الايحاءات، كمفاعل التخمير فى ملاقط [صفحہ ٥٠] الكيمياء: تشعب فى أجهزة الأجساد انعكاسات انعكاسات، تتسرب الى هنا و الى هناك، فى العين - و فى الجبين - و فى كل مخابىء السمات - انها مخازن النفس المتكومة اليها من المجارى البعيدة المتحولة من حقول التجارب التى كان يعانى كل وطأتها الآباء و الأجداد، انها خطوط البناء النفسى - الحياتى الذى تشتاقه الذات الأصلية فى الانسان - انه المجتمع الذى هو قوة و منعه الانسان. انها الصفات المشعة بمعانيها، تلك التى كانت سحرا، و هيبه، و ايحاء، و جمالا، فى تقاسيم الطفل البهى الأمين محمد ابن عبدالله الطالبى الهاشمى، و ابن آمنه بنت النجار، انه المتفرع من أرومة طيبة الجدود فى اهتماماتهم الأصلية لبناء الانسان الطيب المهم بصوغه المجتمع الذى هو ملاذ الأمة. و هكذا انفتل الايحاء انعكاسا فى غدة صدر حليمة، و هكذا غزر فى صدرها لبن النبوة... فسبحان الله ترخر بين يديه الأنابيب بالعناصر، تلونها و تلعب بها أصابع الكيمياء... مهلنى الى مثل هذا القول، اسم غزاة، المريبة و الحاضنة. انها الجارية المأوية الى بيت الحسين - لقد كانت أم ولد - لا شك أن ايحاءات الجو الذى لازمته منذ بعض الوقت، قد لعب فى عناصر جهازها النفسى الطيب لعبته الكيمائية المتجاوبة مع حقيقتها الجميلة، فانصهرت مع آل البيت على اندغام شعورى و فى الارتباط - لقد أخذت بحب الحسين فى مطاوعة داخلية [صفحہ ٥١] المحور، أملت عليها أشعة من طيب عنصره، كانت تنعكس على كل ملامح جسده، فى كل حركاته و سكناته: انه ابن على العظيم، المتين الخطو فوق الأرض، و البهى الملامح و هو ينقل عينيه عبر الفضاء - و انه ابن جده الرسول، المكفكف الأرض بمطارف النعيم. و غزاة - هنا - كحليمة السعدية - هناك - يبعد بها الغور من دون أن تعرف كيف تمشي - انها المتأثرة بمهابة ما ترى، من دون أن تدرك كيف هى خيوط الجاذبية، و ما هو لون و عمق مداها. عندما أخذت الطفل الى صدرها كانت - ربما - أكثر قليلا من خادمة - ولكنها - اذ مرت بالحسين و وجدته ساجدا يصلى لخلص زوجته من الموت - سجدت قرب، و كان سجودها هكذا، يرفعها الى سوية أخرى لفها ببعض مما يلتف به الحسين، و رفع قيمتها من مهبط الى مهبط. و عندما قرأت نبرات روحه فى عينيه، تحولت نفسها من شعاع الى شعاع، و أحست - من دون أن تفهم - أنها تحررت من ربطة تزرن خصرها بها أغلبية الجوارى، لترتبط بزناز آخر، هو الذى تتقدس به صدور الأمهات. لقد حملت الطفل الضعيف الخائر القوى، و العين و الصوت - و الخارج منذ لحظات من رحم شرفت بها الأمومة، و هى تتعصر اعتصارا بآلام الموت - حملته و هى خادمة حزينة، و لكنها كفكفته بخيط من دفء عندما ألقى الحسين على رأسها حبرة أم. [صفحہ ٥٢] و لقد عطفت عليه عندما اختلت به فى ساعة أولى، و أرضعته فى أول ليلة من عمرها الجديد، قطرات شحيحة، لأنها ما كانت بعد قد غاصت فى حنينها المنشود. أما فى الليلة الثانية فانها كانت مهدومة القلب، و من أشد الباقيات حزنا على الأم التى مزقتها حمى المخاض. و فى الليلة الثالثة أحست بأن لها غدة فى صدرها بدأت تمتص ذاتها من ضفاف القلب، و هكذا راحت تنشط بها شفتى طفل، لا يزال كسل حزين يلقط عينيه

عن تلمس النور. بعد مدة وجيزة غير مطروحة من الذاكرة - وقد بدأ الطفل يوزع نظرات عينيه على الأكف التي تناديه الى غنج و الى شبه مداعبة - راح الملح ينقتل بغزاة من حس الى حس آخر، يقوى فيه و ميض الوجدان. لقد بدأت تقطع مثل هذه المراحل الممنوعة - مرة بعد مرة - مع نمو الطفل و شعوره المتزايد بالجو المشبع بالعطف و الحب اللذين هما له على وجه التخصيص المندى. كثيرا ما كان يدخل الحسين - فى ساعات وجوده فى البيت - الى الغرفة المحبوبة - و كانت السعادة تغمر وجه الأم الرضية، و هى تراقب الأب مغرقا عينيه فى عيني الصغير، و هو يداعبه من دون أن يشبع. لم يتمكن هذه المرة - و هو جالس على الأرض، و بين ذراعيه الصغير على - الا أن ينادى غزاة حتى تشاركه لذة الغوص. [صفحة ٥٣] و لبت غزاة، و بسرعة بريئة هبطت الى الأرض بالقرب منهما، و الحسين كأنه يشعر يتغنى: - ألا- ترين معى يا غزاة: كم فى العين هذه من بعد قصى؟... انى أرى فيها جنانا لا تشيع من ارتشاف الكوثر... انى أرى فيها نغاسا لا يتعب من مجادل النور... انى أرى فيها قعورا عجيبة مرصعة بالقباب... و عرك الأب الطفل بين يديه و تركه الى ما بين يدي غزاة - و وقف مفتشا يمينا و شمالا و هو يقول: - أين أنت يا غزاة؟ ألا- ترين معى ما أرى؟ و لكن غزاة حذرت أن مولاهما فى خدر المناجاة - و أن الذى يره هو من وحى السياحات... فركعت على الأرض خاشعة تراقبه. و طفلها الصغير قد استسلم الى اغفاء هنيئة. أم الأب، فقد بقى يتمشى و كأنه مغمض العينين و هو يستأنف القول. - انى أرى فيها أبى الامام، الأدعج العين [صفحة ٥٤] و الساطع النور، انه الامام على، ركيزة الأئمة، و شعاعهم الأبدى. انى أرى فيها جدى العظيم محمد... يسجد هناك لربه، تحت و فوق قباب النجوم. انى أرى فيها اماما يتدى بتركيز الحق المنير... لا ينتهى الحسين من مناجاته تلك حتى يكون قد فتح الباب و خرج. و لكن غزاة الباقية وحدها مع الطفل على المغفى على صدرها، فانها انتفضت و هى تقول: - لقد فات وقت رضاعك يا طفلى العظيم. ان صدرى ينزف و ينثر من فوهته اللبن. الا- استيقظ يا حبيبى و التهننى. لقد جعلنى أبوك بكليتى غدة لك... ما أدركت حليلة السعدية أنها أرضعت نبي المسلمين لبن النبوة، الا بعد أن زارته و هو النبى. فأجلسها قربه على طرف عباءته، و لفها بها و هو يضمها الى صدره بذراعيه. و لكنها أدركته [صفحة ٥٥] قبل هذا الحين - بلمحها المشتاق - أدركته من سناء جبينه، و من غزاة عينيه. و ها هى الآن غزاة - ما أدركت أنها تلقم ثديها اماما سيعلم الأمة كيف تبنيها معانى السجود: و لكنها تأكدت من أنها ترفع طفلا نجته من لوعة اليتيم. و سينجيها - بدوره - من ذل عبودية رفضتها مبادئ الاسلام. يا لحليمة السعدية، تستكل وجودها مكررا - مع مثلتها غزاة - فى ردهات الزمان. هل هو التقمص؟! أم أنه توارث الصفات المتطابقة و المخزونة فى مجتمع الانسان - تتطور به و تشتد بنية الانسان؟! [صفحة ٥٧]

الحسين

اشاره

أنه ظل من الأظلال الشفيفة، تتماوج فيه صفات تفيض من الجبين، و العين، و نعمة العنق، و تختنق بها بسطة الكف عبر أصابع لا يتلثم فيها رونق التعبير. لقد حوشها كلها الى فسحة فى النفس. فهم متهاد اليه من علياء الضفاف - كانت مفاتيحه مرصودة الانفاس على جنان عزيزة الجنى و ربيعة العطاء. لقد كان أبوه ضفة النجوى، و كانت أمه ضفة النعمى، أما جده فكان الضفة الفيحاء، تدله بها، و بها غنج، و بها طابت رؤاه فى البعد المنيع، و بها عزت نجاواه فى العزم الرفيع. يا له - هذا الرفيع - سيمشى سيدا عزيزا منيعا، على قدمين من شوق أبلج، تقطعان به حر الصحارى، و صدى السراب، و ترميانه شهيدا يشرب دمه على كفه، و يسقى التربة المقهورة فى كربلاء! انه الآن أب لطفل ولد جديدا مع صبح مكسوف القمر، و غائر الزهرة فى هالة دغشاء. لقد رأيناه - فى نموذج طرى - كيف كان يقرأ ذاته فى عين طفله، كأنه يقرأ مقطوعة شعر. أنه الشاعر على كل حال، مجنح الفكر، و قدسى الخيال - لقد [صفحة ٥٨] صاغته رسالة جده و امامة أبيه شاعرا، و صاغه الوعد فى البناء النفسى المركز، و كذلك صاغه الاقتناع الضمنى الواسع الحدود. تلك هى حدوده

الأربعة: اثنان منهما في وحدة التركيز، و اثنان آخرا في مهمة التجهيز. لقد كانت الرسالة عنوان الاطار العام، و كانت الامامة اطار التعهد، أما الوعد فكان اشتقاقا من حقيقة المصدر، و شعاعا نابعا منه في حقيقة الصيانة، و حقيقة الانارة - أما الاقتناع فهو من الفلسفة ضلع العقل، و ضلع العزم، و ضلع الصدق في حقيقة التبتل لقضية توازي - بمفردها - كل الوجود. فلنوسع - قليلا: التلميح

رسالة الانسان

من بإمكانه القول: ان رسالة الاسلام صعبة الفهم و عاصية المنال؟ لو كانت كذلك لما احتوتها الجزيرة في مدى عشرة أيام و عشر ليالى، و لما اختمرت بها أمم و سبعة من أمم الأرض، و تم بها تفاهم فسيح المجال - فلنقل: انها عميقة القرار و لكنها سخيّة رضية في التفاهها ببساطة لا يتعرقل بها الفكر و لا تتنابد فيها نعمة الأوتار - ان لها البليغ من الأركان، و لكن لها النذر القليل من تعداد الأركان. انها التوحيد - أولا و آخر - انها التوحيد توحيد الخالق، و توحيد المخلوق في الخالق، توحيد الانسان في الأمة، و توحيد الأمة في الانسان - انها المساواة في التوحيد، و انها الحق [صفحة ٥٩] و العدل في المساواة - انها الحب، و انها الصدق، و انها العفة، و انها نبل الصفات، و تلك هي الوحدة العادلة و الجامعة في الأمة المرصوفة بالانسان. أى شىء في الأمة يجمعها، و يقيها من الانفراط، غير الوحدة العفيفة المشمولة بالصفات؟ فاذا تلفظت الرسالة بالأمة عنت بها مئات ملايين الناس، و اذا قالت الانسان، شملت به كل أمة من أمم الانسان - انها التوحيد البهى النازل في الكلمة، و تلك هي نحافة الكلمة، و تلك هي ضخامة الكلمة، و تلك هي البساطة و الفراة في نحت الكلمة، و هكذا اذا أمرت الرسالة بالمعروف، و نهت عن المنكر، فانها تكون قد سكبت كل جواهر التوحيد في الأمر و النهى الصائنين حدود الأمة في بناء حقيقة الانسان. أى شىء هي الرسالة غير التوحيد، غير نشر الخالق في المخلوق: عدلا، و حبا، و نبلا، و شكرانا، و وفاء، و وعدا بنعيم يستحقه الصادقون، و انذارا بجحيم يشوى بها المارقون؟! اليست الأرض في مجموع أممها هي التي تبني انسانها بمثل هذه الشرائع التي يسميها الناس مقدسة، و هي - فعلا - مقدسة في بناء مجتمع الانسان. تلك هي الرسالة في تركيزها الفلسفى و في ميزانها الاجتماعى الرائع، و تلك هي التي نزلت نقشا في وجدان الحسين، و التهب بها مشاعره - أما الذى أنزلها نقشا، و أججها لها في أسلاك النفس، فهو ذاته الذى اقتنصها من بحبوحة الفيض، [صفحة ٦٠] و خص بها آل البيت ليكونوا ركيزة القيومة و عدة الامامة في مطلع الغد.

الامامة

و ليست الامامة من غير جوهر الرسالة - فهي اشتقاق منها و ليس من سواها، تماما كما يمتد الشعاع من مبرغ النور، لا من انطواء النور في عتمه الديجور. و الامامة - لغة - هي الأم بكل معناها الصحيح، فهي رحم في تكوينها الممتاز. و بطانتها المقدسة. كثيرا ما تكون القضايا الكبيرة مضغوطة بحجم صغير، كحجم العدسة في العين: فهي صغيرة صغيرة و حجم الفضاء و النور يمر فيها رواء - و كذلك هو حجم طبله الأذن خلف مسرب ضيق الثقب في هضبة البوق - و هدير البحار، و قرقرات الأعاصير، و صفير الجن، تتسجل كلها عليها و هي تميز في ما بينها بلا عناء. انها لذلك قضية الرحم في حجمها المضغوط - انها تضيق و تضيق كأنها حق صغير لحضائه نطفة هزيلة هابطة من دنيا الخفاء - ثم تتسع و تتسع كأنها عالم واسع المدى في انطباقها على جنين سيكون من ولادته انسان مغموس في حنين روى يخلد به مجتمع الانسان. [صفحة ٦١] أسوق ذلك لأعنى أن الرحم بالذات هي الانسان - مزق الرحم تر أنك حطمت الكون، و شللت الوجود من عصب الانسان. و الامامة - بالنسبة للرسالة - هي الرحم المعهودة: نقشت لها البطانات الرضية منذ أن جالت الرسالة هيمنة في البال. لقد مدت البسط كلها في الواحات الظليلة حتى يتم عليها هبوط الوحى ملفوفا بكل سجف من سجف الخيال، و محفوفًا بكل عناية تتعهد النطفة في تنقلها من دلال الى دلال... أليس الاهتمام بسلامة الأم هو الأول و الأجدى، ليكون - بدوره - فاعلا في تحقيق سلامة الجنين؟ تلك هي قيمة تحضير الامامة قبل أن يولد حرف الرسالة، و الا فان الرسالة جهض

قبل أن تولد... لا لعمري، يقول المنطق الشيعان: ان من استنزل الوحي من واحة الوجدان هو العليم كيف يصونه بدفة القرآن. لقد صاغ الامامة، ثم أنزل فيها الرسالة، لتكون الامامة رحما من لون المخزون فيها، تتسع له و تتمدد به، أى لتكون من بعده، و من شأوه، و من كل حقيقته فى أى مجال: دما من دم، و روحا من روح، و حقا من حق، و علما من علم يتمكن من ربط الزمان بصلوع الزمان، و يتمكن من عجن الانسان بدم الله فى عروق الانسان. [صفحہ ٦٢] تلك هى الرسالة، و تلك هى الامامة: انبثاقا من انبثاق، من أجل تعهدات يليق بها أن تكون مؤمنة، و هادية، و واصله الى واحات موصوفة بجنان مشبهة بارم ذات العماد و يقول أيضا ذلك المنطق: ان آل البيت بالذات هم التعب الكبير المصبوب فى عملية التقطير و التحضير، تحضير امامة تتمكن من التعهد المقطور - انهم الطيبون الأوائل، و المعانيون الأوائل، و المعانون الأوائل، و المعنيون الأوائل، و عليهم ستبنى السدانة الجديدة... لم ينطق بغير هذا الوعد يوم الغدير.

الوعد

ما هو الوعد؟ و من هو الواعد؟ و من هو الموعود؟ الوعد هو القاء مهمة التعهد على كاهل متين يقدم للأمة رسالة نبيها الكريم، حتى تنفض عن عينيها غبار العصور، و تبني خطواتها من جديد نحو مجد و عز يحققان فيها قيمة الانسان... الوعد هو تمثين الامامة بمفاهيم الرسالة التى هى كل العمق، و كل العلم، و كل الفن، و كل الادراك، حتى يكون التعهد انبثاقا منها و تلاشيا فيها، على حصر لا فكاك منه كأنه المطلق... الوعد هو جعل الامامة فى مركز التثبيت الموحد: فلا رسالة بلا الامة، و لا أمة بلا الرسالة - انها فى وحدة بلا تنئية، كما هما السماء و الأرض، فى وحدة الله و بسطة الوجود... الوعد هو جعل الامامة ملكا لما تملك، بلا خيط فاصل بين جوهر و جوهر. [صفحہ ٦٣] فالامامة واحدة و الرسالة واحدة، و الأمة كلها هى الاطار الجامع... الوعد هو جعل بيت آل البيت بيتا للأمة كلها فى حقيقة النسب الجديد البانى بيته الآن من حجارة مقلع واحد هو مقلع الأمة الأوحده. فالرسالة هى المقلع، و الامامة هى الرسالة، و الأمة هى الحصن المنيع، و الوعد هو المنجح.

الواعد

أما الواعد فانه الجليل العظيم الساكب الحق فى رسالة جمعت الأمة لتربطها بحقيقة الانسان... انه الأمر بالمعروف و الناهى عن المنكر، فى مجتمع أناخت به الترهات فنشفته غبارا، و قحلا، و سرايا - فسحا عليه من فيض نهاه، و اجتباه من جديد الى سماه، و رد اليه عافية - عصرها له - من كل واحة زاغت عنها عينه فلم تبصر الا و هنا من فرط عماه... انه الواعد الأوحده بعد انصرام القرون و انفراط الحقب، فاذا الأمة كلها تأخذ منه شدة العصب. سيظل الواعد الأول العزيز الأوحده بأمة عزيزة كريمة هادية، يضطرد بها السعى الى تكامل و اكتمال، اذا تمت لها الطاعة الوادعة، و المطاوعة الواعية، و ضبطت خطواتها فوق الصراط المستقيم - و عندئذ فهى أمة تضبط موازينها فى الفهم رسالة مدعمة بامامة حصيفة و حصينة، فى وحدة مؤمنة بالمثل المنزلة من هالات السحب. [صفحہ ٦٤]

الموعود

أما الموعود بالامامة فهو الآن ابن المشار اليه بالبنان و العين و اللسان، انه الحسين بن على، و انه المعين فى الخط الأمامى، عينه جده النبى بلسان جده على، و لم يكن قد ولد بعد. ان سلسلة الخط هى المرسومة فى البال: من أب الى ابن، الى حفيد، طالما أن الرسالة تلتقط الأمة فى احتياجاتها اليها، من عهد الى عهد، و من جيل الى جيل، - و عندما تصبح الرسالة - عن حق - مرانا و ثقافة عامة فى الأمة، فان الامامة تصبح هاجعة فى مفاصل الأخيار و الأبرار، و تصبح السياسة فنا أصيلا يتعاطاها كل من ينتدب اليها، أكان طالبا بالتخصيص، أمن من أى فرع آخر... ان الأمة - بعد مسافات المران - تكون قد تماسكت عجبتها، و طابت و حدتها، و التحمت

جدران بيوتها بروعة البنيان... ساعثذ فلتفلت الوصية من قبة الاشارة و من احتياطات التحسب. لأن الضمانات كلها تكون قد فعلت فعلها المدهش في بنية الانسان. ها هو الحسين الآن - و خط الامامة متلاعب به - فانه يشعر أنه هو، و أخوه و أبوه في معرض الامتهان. و أن الرسالة - و بالتالى الأمة - واقعة في ذات الامتهان. منذ سنتين فقط - و بعد لأى حزين - استعانت الساحة بأبيه حتى يتسلم زمام سياسة الأمة، تنفيذا لمضمون تلك الوصية في يوم الغدير... و لكن الساحة بدت تحت خطواته كثيرة الارتجاف، بعد ابعاده عنها ربع قرن!!! ان عدم الأب لتهسب [صفحه ٦٥] الوصية و احتياطها في تجهيز الامامة، خسف الساحة و دق فيها سنانير الزور، لأن القبلىة - وحدها - هزت ذيلها في سقيفة العصيان - فانتشرت لحمه الصفوف، و انتكست الرسالة في نموها الطرى!!! لقد ظن الناس أن الامامة حصر لمنافع سياسيه - اقتصاديه، تدر القوة، و الجاه، و المال، على المتخصصين بها، و هى محصورة - دوريا - بواحد من آل البيت هو أب أو ابن أو أخ أو حفيد للامام المعين الآن في لوحة الصدر. قد لا تكون الأمة و قيعه مثل هذا الظن، و لكن الراجح هو أن أركان السياسة المحليه الذين لم ينسوا بعد مغام الحكم العتيق، هم الذين سيطروا عليها بهذا الابهام، فقسموا الرسالة - أمامها - الى شقين: شق روحى - حياتى - مثالى - مالى؛ و شق سياسى نفوذى - تسلطى - وصولى؛ من دون أن يأبهوا الى كون الرسالة وحده قائمة بذاتها، و أن السياسة مشتقة منها لتعدها في النشأه و النمو و الفلاح. لقد احتوت الرسالة الأمة، مع العلم أن آل البيت هم ركن الرسالة؛ و أن الرسالة كلها بكل ما فيها من تعميم و تصور و تحديد - هى الرسول و النبى العظيم محمد، و أن الامامة المركزة على الامام على، ليست مشقوقة عن الرسالة، بل هى المدموجة بها على التحام، و انصهار، و انضمام... فما بال الذين يأخذون الرسالة [صفحه ٦٦] مشقوقة عن الامامة؟!!! ألا- تراهم قد خبلوها، و مشوا بها مجزوءه، من دون ركنها الأساسى؟!!! ان معارك يوم الجمل، موصوله بمرجوحه النهروان، مفروزة الى تزوير مصاحف عثمان في صفين... تشهد كلها أن انقطاع الرسالة عن خطها الأمامى المدروس و المرسوم في سيرها المنظم، هو الذى أوقع المجتمع في اضطراب الفجوات، و آفاق فيه قديم النزوات، و أنساه أنه موعود بامامة تسير به بانضباط ملحوم بوحده سماويه و وحده مكانيه، تقطع بها أشواط العمر، برافيه عاقله، هى ثواب المجتمع المبني بالعقل النير و الايمان العفيف. [صفحه ٦٧]

الاقتناع

كثيرا و بليغا ما ترك المعانى الفكرية - الروحية و شما ناضحا منها فوق بسطة الأجسام. أن للأسارير في خطوط الوجه و تجاعيد الجبين، و لخفقات المدى في لفته العينين، و للعب القلب و الفكر في رهج الشفتين. أثرا نفيسا تأخذه المراقبة الذكيه و تقرأ فيه أمواج الروح في صاحبها، و مخابىء النفس في طواياه. و أظن أن نمو الجسم - حتى - و نوع تأوه الحركة في اليدين و الرجلين و الأوصال - هو خاضع أيضا لذات التموج الفكرى - الروحى المتمركز في باحه الجسم، لتكون تعبيراً عن مدى توحى به الأوامر المنطلقة من خبايا الداخل، لتصبح بدورها - هذه الحركات - مصبوغه و مدموغه بذات التعبير و طول الملازمة. ليت لى أن أرى جسم الحسين و وجه الحسين، بعينى، كما أراه الآن بفكرى و شوقى، بعد فاصل طويل من القرون، حتى أسبر غور حفر العزم و الروح فوق لوحة بدنه: كم هو عميق في تجاعيد الجبين، و كم هو مشع و حارق في رمشه العين، و كم هو رحال المدى في نقله قدمه، و كم هو رقرق الموج في معصمه، و كم هو أنيق العنق في تلعه فوق المشارف. [صفحه ٦٨] انى ألمحه - هذا الحسين - بعد اقتناعه الكامل: بأنه مدى جده الرسول فوق الأرض، و وصله ابنه الامام في مدارج الظل، و بأن الرسالة هى كل المدى المفتوح على مجالات الأفاصى، و بأن الامامة هى في الرسالة دوى الرسالة و ظلها المقرون، و بأنه من الرسالة و الامامة ذوب شمس لا يشربه غير الظل، و بأنه في مقابل الرسالة و الامامة و صله شعر في موجه حق و دمج مطلق، و بأن الامامة عقب موصول بعقب، الى أن يفيض الله في عين الأمة و تحترق عنها مياسم الذل. هكذا لمحتة محفورا بمداه. و هو يقرأ ذاته في عين طفله الصغير على، و أمه غزاله تسكب في حلقه لبن الامامة. سيشد رحله الليلة صوب الكوفة، حتى يرعى - بالقرب من أبيه - امامه مقهورة العين، يتنزى بها حبك الشياطين، قبل أن يكمل دوره فيها

الامام الأول! سيكون معه - فى الحاشية - صغيره الامام على - حتى يغرق عينيه فى عين جده، و يرى فيها مدى البصيرة، و يتعلم منه حكمه الأيام. [صفحہ ٦٩]

الكوفة

للجزيرة الأم متفسان طريان يغدقان عليها النسم و الندى و الظل، و يخلصانها من كذب السراب و جفاء الهجير. واحد منها يفتح بها على الشرق و ينقلها - على امتداد الصحراء - الى العراق، عن طريق طويل تمتد خطوطه على متعرجات المقاطع فى فجوج الرمال، و لا تتركز ملامحها الا فى مكان اسمه «واقصة» و هى دائرة تتفرع منها دروب ممتدة - من جهة - نحو الكوفة و البصرة و ما أحاط بهما من سهول يرويها الرافدان، دجلة و الفرات، و من جهة ثانية نحو المقاطع المخضرة، يلونها الرقراق بردى، و يكسوها - فى الغوطة - بالزهر، و السندس، و العطر، و الظل المرتاح. أما المتنفس الآخر، فهو الذى يصلها من جهة الغرب - عن طريق وادى سرحان - بالمرواح الشهيبة، تتندى بها مراع القدس و سهول بيسان، فى بوح من مياه الليطاني، و الأردن، و كل المجارى المتدفقة من تعاريج الجبال فى لبنان على شاطئ مغناج ممتد من البحر الأحمر الموصول بالأبيض الأزرق المكفوف بجبال طوروس فى أركان الشمال. [صفحہ ٧٠]

منذ القديم القديم و الجزيرة الأم تروح عن صدرها المثقل بالنار و الغبار، بهذين المتنفسين الوريدين اللذين كانت تتخفف بهما من غوائل ما يصيبها من ضيق فى التنفس، يتردى بها - ان لم تعالجه بالتزوح - الى عوارض الاختناق! من هنا كان تموج الهجرات التنفسية مع الأوائل الملموحين: بالأشوريين، و البابليين، و الأموريين، و الآراميين، و الكنعانيين الفينيقيين، و كلهم تدفقوا و التحموا بالحدود الأوائل المسمين - مثلاً - بالأكاديين السومريين الأصليين المتجذرين فى الأرض منذ الأبعد من تساجيل التاريخ المضبوط بالأبجديات. تلك هى الأمة فى تكوينها الأصل - انها الالتحام المجذر من حاصلين: حاصل فائض عن رمال الجزيرة، و حاصل آخر هو فى حقيقة الاندغام بالأرض المطيبة علميات التنفس، و التى هى رثة متسعة تنقى دم الجسم من كدره، و تضيف على خلايا الدماغ صفوة الفكر و برزات الخيال. ان التوحيد - فى النتيجة - هو الحاصل فوق الأرض - حتى يطيبه الفهم، و الأذعان، و الاستقرار فى الواقع الاجتماعى - الحياتى - التاريخى المتماذى فى الوجود. فليكرر الانتقال، أو فلنقل: الامتداد - اذا استهوانا وقع الكلمة - مع الفتح الاسلامى الجديد، حتى تنال الأمة كلها مما أصابت من جدوى السماء. و ليكن لوقع خطوات الامام على حفر بليغ فى «واقصة»، ينقل بها نقوش الامامة الى الكوفة، و البصرة، و كامل أرض العراق، و يتدبر - من هنا - شؤون الرسالة ليجعلها [صفحہ ٧١] نظيفة «كالشعاع»، و بهية كالمصدر الذى انزلت عنه، و ليكن المسجد - فى الكوفة - مركز صلاته، و مهبط جسده، و مغسل رأسه، و مدى أبديا لذكرى تدوم كما يدوم البهاء من مزغ الضياء. [صفحہ ٧٣]

على الصغير

و وصلت قافلة على الصغير الى الكوفة بعد عشرين يوما من سفر مسرى على نسم الليل، و على ضوء القمر، و مطوى فى النهار تحت الأطناب انقاء لفح الشمس و شدات الهجير. كان يسبق القافلة أسعد الهجرى، على ظهر برزون ذكى أسود، انما الهجرى هو حاجب الباب عند الحسين، و هو أمين سره و حارس دربه - و كان دائما يسبق القافلة بمرحلة تقدر بساعة، حتى يكشف الدرب و يتأكد من سلامة المرور، فاذا لمح ما يريب، قفل راجعا للتنبيه و أخذ الحيط، و الا، فانه يكمل السير حتى المحطة المقبلة، حيث ينتظر وصول قافلة سيده الحسين، و هكذا كان يتم الانتقال حتى بلوغ الكوفة. عرف الهجرى، فى تلك الليلة، عند الوصول الى محطة «واقصة»، المستديرة التى تتوزع منها المفارق: يمينا نحو الكوفة و البصرة، و يسارا نحو تدمر و الشام - أن المنطقة كلها، ابتداء من «واقصة» و مروراً بمحطة «مياه العرب» و «الحاجر» و «جل لعل» حتى «القطقطانة» شهدت تعديلات مذهلة للعرب، فرض فيها جمع الصدقات، و دخول البيوت من دون استئذان... مرة أولى مع عبد [صفحہ ٧٤] الله بن مسعدة الفزارى الذى وجهه معاوية أيضا لتذليل العرب وصولا

الى الحجاز - و لكن الامام أمير المؤمنين، جهز قوة عسكرية بقيادة المسيب بن نجبة الفزارى دحر بها ابن مسعدة و أرجعه الى الشام - وكذلك - منذ عشرة أيام - جهز الامام قوة عسكرية أخرى بقيادة حجر بن عدى الكندى، دحر بها ابن قيس، و جعله يتقهقر على أعقابهم، من «القططانة» حتى «واقصة»، و راح يتعقبه اندحارا حتى صحراء تدمر. لقد انتظر أسعد الهجرى، وصول قافلة الحسين الى «واقصة» فاطلعه على صحته الحدين - فتركوا المحطة سريعا و غدوا السير ليرتاحوا فى محطة «الخزيمية»، و من بعدها يقومون، باستئناف السير. بعد عدة أيام، و مع الصباح الباكر عند بروز الزهرة، و صلت القافلة الى الكوفة. تتمثل القاعة الوسيعة التى تم فيها اجتماع العائلة بدار فسيحة قاعة بيسط سوداء الخيطان، و بمقاعد واطئة عليها طرايح نظيفة مكسوة بارديء محوكة من و بر الجمال. اما الحيطان فكانت مزينة بقبضات سيوف مقصفة النصال، و بدروع مصداة الزرد، منقحة بثقوب تمكنت من أحداث ثلماتها رؤوس السيوف المقصفة و الباقية مغروزة فيها لحياء تذكاري ساعات الجهاد. فى هذه القاعة نرى الآن الامام رابضا كالحيذر فى صدر المكان، و من حواله يمينا و شمالا: الحسن و الحسين، و أمامه فى [صفحة ٧٥] صحن الدار أسعد الهجرى يسند من وراء ظهر الغلام على الذى ترك حضن أمه غزاله و راح يمشى صوب جده الكبير الذى يلوح له بيديه الممدودتين حتى يقترب منه ليضمه الى صدره المشتاق. يبدو أن قدمي الغلام تقويان الآن بما يقارب السنتين من العمر. انهما ثابتتان، تخفهما يدا ميسوطتان، لا تتأبغان، و لا تخفقان، كأنهما من الفخذين فى وحدة الحركة، و فى ذات الشد، و ذات المد، و ذات الميزان، مع انتساق فى الكتفين، تحت رأس مسحوب منهما فى انسكاب أنيق الصلب خفيف الزيغان. اما العينان ففى فتور غنوج تلعب فيهما بسمه مغسولة بكسل لا تدرى هل هو حول أم انه دهشة من كحل، أو انه حزن رخي زرعتة فيهما - قبل أن ترحل - أمه شهزنان. و توقف الغلام عن قطع خطوتين - فقط - تصلانه بجده الامام، كأنه تهيّب الارتماء بين ذراعيه... و غرق الامام - بدوره - فى صلاة ساجدة، و هو يتأمل الغلام فى سبكه قده، و ما عتم أن قال، باغماضه عين و نهده رأس: - سبحان الله، لقد تنبأت لشهزنان و هى فى بالى كأنها مريم - بذكر يزهو به المكان... يا لجبريل، يبشر مريم بغلام سخي!!! و يا لى أنا... تنمو على لسانى ذات البشارة!!! [صفحة ٧٦] و ها هى الجنان كلها تنكسب علينا. هنيئا لك يا ابنى، يا الحسين. - يا سيدا من أسياد الجنة - تضبط المكان بألغاز الزمان، و تحيى الرسول بنسل الرسول، و تسكب فى قلبى الغزاء، و تلبى النداء بأسرار النداء. و انخفض الامام بيديه أمام الصغير، و بسرعة كالانخطاف، كان هذا الزين بين ذراعى جده، فى حضنه، فى وسيع باله، فى دوحه عينيه... اما الجميع فكانوا فى سجود الفرح، فى سجود الدمع، فى سجود الصمت، فى سجود السكوت... بينما كان الطفل يغوص فى عيني الامام، و أصابع كفه اليمنى تلعب بعثونه، و أصابع كفه اليسرى تغفو تحت ابطه، راح الحديث يدور من الكوفة الى البصرة، و من مكة الى المدينة، و من تدمر الى غوطه الشام. قال الامام: - أرجو يا حسين أن تكون قد غسلت روحك من وطأة الحزن على شهزنان... لقد أعاض الله عليك بهذا الغلام الذى سيستمر به مشدودا حبل الامامة - انها وصية جدك الكبير يا ابنى، [صفحة ٧٧] فكفكف حزنك بعزاء تمتد به الرسالة فاعلة فى الأمة التى هى أمه جدك و أمتنا سواء بسواء! و كأنه أتى من مجال بعيد، أجاب الحسين: - بالتمام كما قلت يا أبى - لولا رساله جدى - ملفوفة بك - لما كان لى، من وجودى، شىء أحزن به أو أحزن عليه. انى الآن أصبحت أدرك أن خلو الأمة منا هو كخلو السراج من الفتيلة، هكذا أراد جدى أن تكون فتيلة السراج، و من دون الفتيلة لا ضوء و لا سبيل انارة، فسبحانه تعالى يتعهد خلقه بالدراية، يزرع الرسالة فىنا لنكون - بدورنا - قبسا ننقل العلم، و الحق، و نستمر بنقل الهداية. الامام: أصبت يا ولدى... ان الزيت فى السراج هو مخزون الرسالة، أم الامامة فهى التمرس الذكى، و المران المتنسك - فاذا فقدتنا الأمة، فمن يكون البديل الأصيل؟ هذا أنا فى حرصى على سلامتكما، يا ابنى الحسن، و يا نجيبى الحسين، فاذا أضيعكما فى زحمة الأحداث... فمن أين أتمكن من أن آتى بمثلكما؟ و أنتما المزروعان فى بال جدكما [صفحة ٧٨] و هو غائص فى سجوده فى غار حراء: أنتما نزول السماء فى جنانه، و مهبط الوحى فى وجدانه - لقد وصلكما بالرسالة بخيط امامة لا تشرب الا زيت السراج. لقد غرق الامام - فعلا - فى ذهول و هو يتلفظ بهذا الكلام الذى ابتدأه عاليا، ثم راح يتدرج به الى خفوت ملحوظ، كأنه يريد أن يسكبه سكبا فى أذن هذا الصغير المالىء الآن حضنه. لقد لحظ انه يغفو تحت وطأة الكلام، و عندما سكت

الامام، فتح الطفل عينيه كأنه يطلب المزيد... اما المزيد فانه جاء من الحسن و هو يقول: - ما أكبرك صادقا - أبدا - يا أبى! انى أتذكرك و أنت خارج من معركة الصلح فى صفين، اثر عملية رفع المصاحف كنت أنت المريد الأول و الأحزم فى خوض المعركة حتى النصر، و لكن أغلبية الناس ما طوعوك، لقد أرادوا الصلح بحجة حقن الدم... فتهيت أنت الموقف، و صمت... ثم رضخت... و أدركت أنا سر صمتك آنذاك، و معنى رضوخك... لقد أدركت معك، أن النصر فى الساحة قد يتعد - و ان الانكساف كله سيتناولنا جميعا اذا استمررنا فى العراك بقوة أصبحت هزيلة بعد أن فرط تلتئها التقاعس، [صفحة ٧٩] و الجبن، و عدم التبصر!!! ألا تسمح لى يا أبى أن أحيى الآن الحوار الذى دار أمامنا بينك و بين عبدالله بن وديعة الأنصارى؟ لقد قلت له فى تلك اللحظة: - «ما يقول الناس فى أمرنا عن صفين؟» - فأجابك: «منهم الكاره له، و منهم المعجب به». فشددت عليه السؤال بوجه آخر: - «ما قول ذوى رأى؟»، فتحفظ و أجاب: - «انهم يقولون: - ان عليا كان له جمع عظيم ففرقه، و كان له حصن حصين فهدمه... فحتى متى يبنى ما هدم؟ و يجمع ما فرق؟ - فلو انه كان مضى بمن أطاعه - اذ عصاه من عصاه - فقاتل حتى يظفر أو يهلك، اذا - كان ذلك هو الصواب!!» - و كان جوابك مقهورا و أنت تتمم به: - «ما غبى ذلك عن رأى، يا عبدالله، يا زينة الأنصار،... و لقد هممت بالاقدام على الموت». فنظرت الى هذين الشاخصين الآن، امامك، - الحسن و الحسين - فعلمت أنهما - ان هلكا - انقطع نسل محمد... فكرهت و أشفقت على هذين أن يهلكا... ما انتهى الحسن من تعليقه، حتى وجد أباه قد انكب يقبل [صفحة ٨٠] الطفل بين يديه، ثم يدعوه أمه غزاة حتى تقترب و تأخذه، فانه قد لاشاه النعاس. فهرولت بسرعة، و تناولت الطفل، و الامام يقول لها: - أنت مرضعة امام يا غزاة. فطوباك من أم عظيمة كحليمة السعدية، لقد لحمت شهزان صدرها بصدرك، ستكونين معها - كمریم أم عيسى - و ستأكلان اثناكما من ذات الرطب. و انسحبت غزاة، و غمر من جمال يسربلها و هى تقطع الباب الى باب الخباء. ما طال الصمت أكثر من دقيقتين، حتى قطعه الحسين بالاستفهام: - و الى متى يا أبى سيبقى معاوية متماديا فى تقطيع الأوصال؟ بالأمس، و نحن قادمون الى الكوفة، علمنا فى «واقصة» بحملة ابن مسعدة التى وجهها معاوية نحو تيماء، و علمنا أيضا بحملة الضحاک بن قيس التى وجهها أيضا معاوية قصد تشويش الخطوط من «واقصة» حتى الحجاز! و لقد تمكن المسيب بن نجبة و حجر بن عدى، من دحر الاثنين و ارجاعهما الى تدمر و الشام، فهل سنبقى هكذا، مشغولين بمعاوية من دون أن نتخلص من كفره و نكرانه؟! [صفحة ٨١] و انتفض الامام قليلا و أخذ الحديث: - اسمعنى يا حسين و صدقنى فى كل ما أعنى و أقول: انهم دائما بنو حرب، كأنهم الأسافين المدقوقة فى حجارات الأساس، يخلخلون المداميك و يززعون البناء! و انها الأمة أيضا فى جديئة التخصيص... انها بحاجة الى تركيز يثبتها فى الحق، و يعلمها الغوص فى مدارج النفس، حتى يتمكن منها الصواب، و الفهم، و الادراك... انها الأمة الأصيلة... فليكن لنا أن نقر لها بالأصالة، و لكن العياء الطويل قد نكبها عن حقيقة البناء، و حرماها نعمة العلم، و أوقعها فى غباء كثيف تلبسته فى قليات لها شردت بها عن حقيقة جوهر الانسان، اذ جعلت الفرد فى القبيلة رقما عدديا لا اسم له فى معرض التعريف، و لا قيمة يزدان بها فى لقطه الميزان... ان الفرد - و الحالة هذه - هو فى عداد الحيوان، و ليس فى مصاف الانسان. ذلك هو واقع الأمة بين أيدى مشايخ القبائل، جاءتها الرسالة لتستعيد لها انسانا يكون له اسم بحد ذاته، و له حد كريم، و له نفس عزيزة... جاءتها الرسالة لترفعها قيمة عددية [صفحة ٨٢] من الفين - فلنفرض - فى عدد أشياخ القبائل، الى ملايين لا اسم لكل واحد منهم معرف عن الذات، كأنهم من ضمن اعداد السوائم!!! - تلك هى الرسالة - يا ابنى يا حسين - جاءت تجلو هذه الأمة التى كانت تعبر «واقصة» منذ زمن سحيق، و لا تزال تعبرها حتى اليوم: الى الكوفة، و البصرة، و أرض صفين - و الى تدمر، و الشام، و الغوطة، و مرايع فلسطين... لقد جاءت الرسالة تجلو هذه الأمة، بأنسانها القديم و أنسانها الجديد - بأنسانها العابر «واقصة»، و أنسانها العابر وادى السراحين،... انه أنسانها المتفرع عنها منذ عشرات آلاف السنين، و انه أنسانها الذى لا ينسى جذوره، و لو بعد عشرات آلاف السنين... لقد تعقبته الرسالة من حيث امتد الى حيث اشتد - تعقبته حتى تبنيه انسانا عزيزا، لا ينسى آباءه، و يستمر فى أبنائه، و يعيش باحترام الجدود. و هان نحن الآن - يا ابنى - أولياء الرسالة تنشر عزا و حقا، توقظ بهما أمة وسعها المجد فوق الأرض، لنعيد اليها مجدا ضيعته فى سرى الليل العتيق... اما معاوية السفينانى المستنجد

بقبليات قتلت فينا قيمة الانسان بين [صفحہ ٨٣] أحضان المشايخ، فاننا لم نتخلص من سفيانيته بعد، حتى تستقيم خطواتنا فوق المعابر. انه لى أن أكمل السير، وانه لك يا ابني يا حسن - أن تتابع مثلى السير. و سيكون لك يا حسين أن تشرب أيضا كأس الخل عندما يأتي دورك - و أنت تبعث رسالة جدك فى النفوس حتى تستقيم النفوس و تعي وجودها فى حقيقة الانسان... يا لجدك الذى يبعث الحياة فى الأمة حتى يحيا هو فيها، و حتى نحيا نحن فيها، فلا هو يموت، و لا نحن نموت. [صفحہ ٨٥]

نبذات

ابن ملجم

لا- يزال اسم هذا الحقيق يقفز الى البال كلما مر بالخاطر اسم الامام على، و لو بعد تصرف أربعه عشر قرنا من قرون السنين... أ يكون للاسمين - هكذا - أن يعيشا متلازمين فى ذمة التاريخ: واحد تتمجد به قيمة الانسان، و آخر تتلطح به قيمة الانسان... أم أن الخديعة التى نقع فيها هى - دائما - فى اننا اذ نسمع خبيبا، نذكر حافر الحصان قبل أن نتمثل طلة الحصان... لعمرى، ان الحافر، و لو كان من الحصان فى عزم الحصان، هو غير العز الذى يتلحاك به صدر الحصان... تماما، كابن ملجم - فى اسم انسان - يضرب حافره فى صدره الامام!!! يا لذل المسافات، بين انسان و انسان، كذلكها بالتمام بين حافر و حصان... و ضرب ابن ملجم حافره فى صدر الامام و درجه صريعا فوق التراب، تماما و هو متصل بربه فى باحة المسجد!!! يا له من بطل نجى الرسالة من كفر الامام، و عقل الامام، و مسافات الامام!!! [صفحہ ٨٦] كأن الجزيرة كلها كانت فى عناية ابن ملجم يفتش عن كل موبقه فيها، ليخلصها منها، و بينها من جديد بناء صحيحا... هكذا قالت له الحبيبة القطماء، و اسمها قطام... أغرته بالحب، و منته بالوعد، و بشرته بالجنة ان أقدم و أراح الكل من... يا للمرأة الباهرة التى خلصها الحب العفيف من الواد الكافر، و صاغ لها قدمين جميلتين تمشى بهما فوق الرمال.

و الأمة؟

لقد وصفها لنا الامام - منذ لحظات - بانها أصيلة، و لكنها تعبت من حمل أصلاتها فوق أكتافها و هى تعبر - على مدى آلاف السنين - فيافى الرمال و حرائق الحرات... و لقد اجتازت، بقوافلها المزدحمة فوق الخطوط، كل المعابر المغيرة بالسراب و الهجير، و ألقت رحالها فى واحات اليمين، و فى واحات الشمال، و فى الواحات النابتة من تحت المجاذيف، فاسترجعت - حيث حط بها الحنين - نشاطا من عزمها الدفين، و راحت تبني ذاتها، حيث حلت، من دون أن تنفض عن قدميها غبار ماضيها القديم!!! لقد جاءت قبائل قبائل، و عاشت فوق الأرض قبائل قبائل، من دون أن تدري أن الالتحام الصحيح بالأرض يجعلها قبيلة واحدة مزروعة بعصبية واحدة تمتتها وحدة الأرض و لا يفتتها تعداد القبائل. انها الأمة الحاملة تفتيشها فوق الأصقاع، و هى التى جاءتها [صفحہ ٨٧] الرسالة تعلمها توحيد الله بتوحيد ذاتها و تنظيفها من مرض القبليّة المفرطة فى توزيع الولاء. ان للأمة الموحدة أرضا واحدة تجمعها لولاء واحد نابع من مصلحة جامعة، تلحمها مثل واحدة كريمة تبنيتها - وحدها - بلا شرك يفسد الايمان بالجواهر الفرد. فلتعزز الأمة بقوله الكريم: - «ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير و يأمرن بالمعروف و ينهون عن المنكر و أولئك هم المفلحون» (سورة آل عمران، الآية. ١٠٩) - «كتم خير أمة أخرجت للناس تأمرن بالمعروف و تنهون عن المنكر و تؤمنون بالله» (سورة آل عمران، الآية. ١٠٩) - «لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه...» (سورة الحج، الآية. ٦٦) - «فأرسلنا فيهم رسولا منهم...» (سورة المؤمنون، الآية. ٣١) - «و ان هذه أمتكم أمة واحدة و أنا ربكم فاتقون» (سورة المؤمنون، الآية. ٥١) - «و كذلك أوحينا اليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى و من حولها...» (سورة الشورى، الآية. ٦) [صفحہ ٨٨] - «انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون» (سورة الزخرف، الآية. ٢) - «بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة واحدة و انا على آثايرهم مهتدون» (سورة الزخرف، الآية. ٢١) هذا ما قدمه النبى العظيم لهذه الأمة، و هو واحد منها فى

تسلسل التاريخ، و لقد تقبلت هذه الأمة دستوره الحياتي الجديد، و راحت تتوحد و تتجدد به، و ذلك هو كل ما اقتنع به الامام على، و كل ما انتدب نفسه لترسيخه، حتى تتمكن الأمة من لم شعثها و استرجاع أصالتها، و نبذ قبلياتها الى قبيلة واحدة مؤمنة بالوحدة العظيمة التي هي منية الرسول، و منية البيت الذي هو بيت الرسول، و بيت الامامة، و بيت المجتمع في آن واحد.

والقبليّة؟

ان القبليّة - وحدها - هي التي قتلت الامام! ليس لانه عبقرى يندر أن يأتي بمثله نسل الانسان، بل لانه - بالاضافة - طالبي سيحصر الامامة و السياسة في صلبه، من دون أن يدعها - تحلم بهما - كل قبيلة من مجموع القبائل الأخرى التي تتبعثر بها الحرات، و الأحقاف، و الأربع الزاحفة الى الخلاء من كل تحقيق يتمناه حضور الانسان! انه الظن الأثيم الغارق في الجهل، و البعيد [صفحة ٨٩] عن أي مضمار!!! فالطالبيّة - في منظوق الرسالة التي حظيت بها أقحاف الجزيرة، و حراتها، و ربعها الخالي على السواء - انما هي حصّة الأرض الباقية لها من واحاتها المقدسة، و هي الآن، من حضن الرسالة، طلقة رائعة أرفع من قبليّة، و أبعد من طائفية، و هي - بذات الوقت - عصبية كثيرة اللاحاح على صهر القبائل كلها في الوحدة الممتازة الصائنة الأمة من أي انفراط. ذلك ما وعاه الامام من طالبيته التي نبذها و اعتصم بها امامية - رسالية - توحيدية، تغطي الأرض كلها التي وطئتها الجزيرة و هي تفتش عن أودها منذ عشرات آلاف السنين. انه لم ير الرسالة وحدها في الضمانة الرائعة المحققة أمة تنسى قبلياتها، و تعتصم بوحدتها الأرضية المفعمة: بالخير، و الحق، و العدل، و التقوى، و كل معاطف العلم، و الفهم، و الادراك، ليكون لها انسان نظيف مقتنع بالمنطق، و مؤمن بأن الأمة كلها هي الحوض الوحيد الباني جنّة الانسان، و الصائن قيمة الانسان. ان الانسان هذا المبني بالفهم، و الوعي، و الصدق، و الادراك، هو مطلب الامام، بينه، صرفا - بالتقوى و العفاف، حتى ينجي الأمة من أي لص - كابن ملجم - و من أي حاكم - ك معاوية - يحتال على القبائل - باسم الرسالة - حتى تملأ خزائنه - من عرقها - بسبائك الذهب، يرقص بها فوق الجماجم، ابنه الخليع يزيد!!! [صفحة ٩٠] و لكن القبليّة - بقيادة من حركها منذ ثلاثة عقود - تشددت الآن بآبن ملجم، انعشت معاوية، و طرحت عليا الى الأرض، ليكون للحسن أن يتحمل أعباء الجريمة بمحاولة جديدة انتقلت اليه، و هي من جوهر المهمة الملقاة - أصلا - على عواتق الأئمة.

والامام الصغير على؟

و الامام الصغير على، و عمره الآن أكثر من ثلاث سنين - ما حاله و قد خسر جده؟! و هو له أكثر من جد، و أكثر من صديق... انه بالنسبة اليه: أمرح ذراعين، و أطيب شفتين، و أعذب عينين... انه حضن، و انه غنج، و انه رقص على الكتفين... مع الصباح يراه، و يعلو صدره، و يعلو كتفيه... مع المساء يدغدغه، و يحفر اذنه بأصبعه و يغفو على زنديه... كأنه وحده هو المنادي، و كأنه وحده المعلمه مد النداء... انه الآن يصوغ الجمل على هواه فيقول: - جاء جدى، فأين أنت يا حسين... افتح الباب... جدى فى الباب... و على أمة غزاة ينط نط السنجاب... انه يطرحها أرضا و هو يقفز من باب و يتلظى خلف باب... ثم يدنو منها، يعتلى ظهرها و يتغنى: - لما أقول لك قومي قومي يا أم على، و اذا [صفحة ٩١] ما قلت لك قومي - خليك في بطن الدار. انها كلها جملة التي أصبح ينتقيها على ذوقه و يلحنها على موسيقاه. فكيف سيكون له أن يلحن؟ و قد خلت الدار من جده المختار!!! انه المدهش هذا الفتى الصغير، بعينه الذابلتين، و جبينه النضير. لقد تقبل صرعه جده بذهول أخرس، غلفه بتأمل غزير، لا يعرف من أي مدى هو المسحوب... لقد رأى جده محمولا على الزنود، عندما دخلوا به و ألقوه على فراشه، و هو مضرج بالدم، فوقف تجاهه يتأمله بعينين مشدوهتين، يطوف فيهما سؤال عجيب وجيع - معناه: - ما هذا الذي حصل؟! و لقد لمح جده و هو فوق فراشه صريع، و لكنه بجبروته و ايمانه منيع رفيع، فاشتد نحو فتاه و ناداه، فانكب الولد صريعا يغمر قدميه، و ينزف دما من مقلتيه، و تعباً، و هلعاً، و ارتعاشاً من رثيته!!! فلملمه الجبار الممزوق الضلع بضربة السيف، و الى صدره لفلفه بعشر قبل حمر - و هو يقول: - لا- تخف يا ابني العظيم! سيكون لى أن أنقل

خطواتي الى فوق، أيناديني جدك الأعلى اليه، ولا أرحل؟ [صفحة ٩٢] ان الجنان لنا يا ابني النجيب، فابكني قليلا، قليلا ولا تكثر... ثم فليضحك بك الحق الذي ينمو فيك، وبك سيتفسر... وعندئذ - فأنا ملفوف بقميصك، حتى في عيني، بليغ في لسانك وفي شفتيك... أيجوز أن تحزن علي، وأنا فيك - هكذا - حتى؟! منذ أن أغمض الامام عينيه - وخشوع فريد يلون عيني على الصغير، بمسحوق لا هو من الحزن - ولا هو من التصبر، بل هو من التأمل الغائص في واحات الذات - وهو الذي ستولد منه حقيقة التبصر، وحقيقة الرضوان. [صفحة ٩٣]

الامام الحسن

انه عميد البيت، و عماد الامامة. ان القاعة ذاتها، كان يتصدرها الامام على منذ عشرة أيام، يتصدرها الآن الامام الحسن... انها حزينه كما يبدو على الوجوه، وعلى الجوى، وعلى الحيطان!!! ولكن الرهبة ذاتها التي كانت في كل حين تسيطر على المكان، انما هي التي تستمر في اشاعة ذاتها على المكان، فالامام على - وان يكن قد غادر وتخطى الزمان - انما هو قيمة يتلبسها اسمه، وتتجوه به حروف الحدثان... فليقله ابن ملجم، وليتكأيد عليه ابن سفيان... فانه يحول ولا يزول - انما الجوهر هو في ما هو العطر، لا في ما هي طينة الأبدان، والصدق والحق هما جوهر الروح في الانسان، وهما خلود في مجتمع الانسان. وانعقدت - مع الصباح الباكر - جلسة بين الحسن والحسين، للتداول في الشؤون الملحة التي تعاني منها الأمة في ظرفها العصيب. ان معاوية - كما قال الامام للحسين، اثر وصوله من المدينة الى الكوفة، ولقد سمعنا نحن القول: «انهم دائما بنو حرب، كأنهم الأسافين المدقوقة في حجارات الأساس، [صفحة ٩٤] يخلخلون المداميك، ويزعزون البناء - انما معاوية بن حرب كان موضوع البحث بين الأخوين، وكان محصورا في كيف يمكن اتقاء الرجل، بعد أن قويت شوكته واستفحل أمره؟! ولقد توقف البحث على خطين: اما معالجة الأمور في الوقت الحاضر بالمهادنات - واما الالتجاء الى الحرب، انطلاقا من «واقصة» حتى تدمر والشام... ان القضاء على الرجل هو المريح الأمة كلها والموحدها في خطها الأصيل!!! لم يكن قد جال البحث في مجمل مضامينه، حتى شق الباب الفتى على ودخل... وما أن لمح أباه وعمه جالسين في مكان جده، حتى درج متينا نحوهما، ومن دون أي تردد تناول حضن عمه الحسن، وجلس فيه، كأنه حضن جده - بالذات - لم يزل حيا... خشع الرجال للبادرة النقية، وتناولاه - اثناهما - بضمه معبرة عن شوق حميم: زرع الجد في الحفيد، وأحيا الحفيد في الجد!!! يا للجمال الناتج من ذاته كم انه رائع متسلسل العطر في مسلسل فوح الزهر!!! أطلت الأم غزاله على الباب تفتش عن غلامها الشارد منها... فتبسم لها الثلاثة بسمه واحدة وبمعنى واحد، جعلتها مغتبطه - تقفل الباب وتذهب. أما الحديث فكان حوارا بين الأخوين، وكان صمما مدهشا [صفحة ٩٥] على وجه الغلام، كأن عينيه آلة تسجيل أبلغ ما ينحفر فيها مدى الصوت في ارتعاشاته واعتلاجاته، لا في تأوداته واهتجاجاته، كأن المعاني لا المباني هي الولوج المقدس الى قرارات النفس - تدركها بالعين ولا تأخذها بالاذن - ولا تنالها في قرعات النداء، بل تستعذبها من رجعات الصدى. لقد كانت هكذا حال الفتى - وهو في أربع من عمره - يختزن الظنون من تحت المتون، ويكتشف روعة الأبعاد من عيون المشرفين عليها، ويعرف لون العطش من العطاش يفتشون عن ماء!!! أليست هكذا - مبنية - نفوس المشتاقين، وأرواح الملهمين، وعدسات عيون الرائيين والمبصرين!!! وتبسط الحديث عن ماهية المهادنات - قال الامام الحسن، والفتى في حضنه يرافق مجال شفتيه: - لما كنا - بحاجة الى انشاء مهادنات توقف الحرب، وتحقق الدم، وتنجينا من هدر يطالنا في جميع طاقاتنا الروحية والمادية على السواء... عشر سنوات - فقط - كانت كافية لنا في مجال التحمل، ركز فيها جدنا الرسول هذه الأمة، وضبط كل شؤونها في الجمع والتوحيد، ثم فرض عليها هدنة - لماذا لا نقول: أبدية... تبنى فيها كل امكاناتها العظيمة في ظل من السلم الواعي والبانى [صفحة ٩٦] أمجاد الأمم... لقد كانت الهدنة - تحت عينيه - هي المحققة راحة الأمة، والسائرة بها من تركيز الى تركيز، ومن تسديد الى تشديد، ومن مران الى ترسيخ، ومن عدد فارغ القيمة، الى جعبة ملأى بالقيم، أى من قبائل بلا عد، يضج به الغزو والتشريد، الى وحدة تجمعها الرسالة في الحق والتوحيد... ان الترسيخ - وحده -

كان الضامن الأكبر والصريح، وكان الوقت يمشى و يطول، هو المرسخ المبعد الأمة عن الانفراط، والمشفيها من ماضيها المريض، والمنسيها شقاشقها التي كانت تنسبها الى البعران أكثر مما كانت تنسبها الى الانسان! قال الحسن ذلك و توقف به حزن أسود، امتدت عدوته الى وجه الحسين، فتململ في مكانه و هو يقول: - هل آخذ عنك شقا من الحديث حتى ترتاح يا أخى الامام؟ وأجابه الحسن: - و هل أحد غيرك يكمل دورى يا حسين؟ وهذا الفتى المصغى الى، أليس له أيضا أن يصغى اليك؟ فيما كان الحسين فى بهاء استعدادة لتكميل الحديث، كان [صفحة ٩٧] على الصغير يقفز من حجر الى حجر، يغمر عنق أبيه و يستقر: الحسين: لو أن زعماء القبائل - و قد قبلوا رسالته جدى و تمنطقوا بقوة هديه - دغموا الرسالة بالوصية، و مشوا قدما فى التسديد و الترسيع و التشديد، لكانت الهدنة تلك بقيت كما قلت يا أخى، فاعلة فعلها الرشيد... لكان أبى السائس السديد، لكان - هو ذاته - الطويل العمر، و السائر بنا نحو محطات البهاء و الرخاء... لكانت الأمة - فعلا - تتمتع بهدنة مجيدة، يأخذ الدهر منها صوابية الترسيع، و يتعلم منها التاريخ كيف تكون روعة التاريخ!!! و لكن الزعماء - من حيث لم يدروا، لنكد الحظ - مرغوا نفوسهم، و مرغونا بالفشل الطويل الأصفر!!! هكذا نزل الحزن و الأسى من بين سفتى الحسين، بعد أن انسابت دمعة حمراء من عينه، حطت على ثغر الفتى - فاحترقت بها شفاته، و اتقدت بها عيناه، فغطى عينيه براحتيه الصغيرتين، و هو يخنق نשיجا تعباً به صدره النحيل! بعد دقيقة من قوت مذهول، غمر الحسين ابنه الصغير، و أقعده وحده على المقعد و هو يقول له: - اجلس رجلا، و لا تخف يا ابنى - نحن لا [صفحة ٩٨] نريد أن نعلمك الفرح قبل أن ننشر أمامك مناديل الحزن... ساعتئذ تقدر أنت أن تعرى الحزن من مناديله و تتركه قبيحا أجرب!!! فتبسم الفتى و هو يقول بلهجته الذكية: - الحزن هو الأجرب... اما الحسين فانه استقام فى مقعده - بالقرب من ولده - منتظرا اكمال الحديث المطروح على بساط البحث - اما الامام الحسن فأكمل: - منذ أن تولى الحكم سيد الأئمة، و هو يعالج الناس بعزم مهدور بين حروب داخلية، و مهادنات جانبية... لا الحروب أدت فعلها المطلوب، و لا كان للمهادنات غير قيمة محدودة! ليس للحرب أن تسكت الا بعد أن تسكت الخصم! و ليس للهدنة أن تطيب الا اذا فرضها التعادل بين قوتين، لتكون حكما يفرض على الاثنين سلما بسلمين. القوة تفرض الحرب - أكانت على حق أم كانت على باطل! و الضعف فى أغلب الأحيان - يطلب الهدنة - و لو كان معه كل الحق. أما المقاومة فهى - بين المطالبين - لا حرب و لا هدنة، بل هى مهادنة ذكية، تتحايى على القوة، عليها - مع الوقت - تضنيها و تأخذ عليها المبادرات... [صفحة ٩٩] - ذلك هو شأننا مع معاوية، منذ أن تحكمت بربابنا أدران الخطيئة، فحرمنا - أغبياء الزعماء فينا - من نعمة هدنة صحيحة فرضت لتنجينا من حروب التدمير، و لتقينا من مقاومات فيها من البؤس، و الجبن، و التحايى الكثير الكثير!!! لقد زرعوا معاوية فى الشام - منذ أربعين سنة زرعوه - فبعثونا شظايا شظايا، و طرحونا أشلاء حروب باطله، و مهادنات كاذبه، - و مقاومات فقيرة، فيها من الحيف و التشريد ما يعمى الأمة و يضنيها!!! اذا كان هذا هو تصوير حالنا مع معاوية، فما هو رأيك يا الحسين؟ هل لنا أن ننشط للحروب؟ أم نلتهى بالمهادنات؟ أم نكتفى بمقاومات نتعل بها الى يوم حريز؟!! ما تفشت على وجه الحسين غلايلات يأس، بل انه تصلب بعزم و قال: أرى التعادل موفورا بين قوتين: - و أراه معنا أكثر من تعادل - انه ترجيح: لقد أسكتنا معركة يوم الجمل، و كأننا أسكتنا معاوية... و أخرسنا جعجعة النهروان - و هذا معاوية آخر يسكت... و خضنا صفين - و لولا رفع المصاحف، اما كانت خرس صفين؟!! [صفحة ١٠٠] الحسن: صحيح ذلك، و لكن قوة معاوية تستند الى مخزون أربعين سنة فى أرض الشام الغنية و المراتحة، أما قوتنا فهى التى أنهكها زعمائنا التقليديون على مدى أربعين سنة بالتمام! فجنينا هنا: الفقر و الضعف و الحرمان! و جنى هو الثروات الطائلة، يخضها سيوفا فى نحورنا، و معدات، و دروعا و رماحا... و يرشها شبعاً على جنوده، و رشوات يشتري بها جياعا عندنا، يقوى بهم جيشه، و قلاعه و متاريسه!!! لقد كان رفع المصاحف خدعة يصوغ منها هدنة تريح جنوده ليوم حرب ثان، يقوى فيه، و نهزل نحن!!! أنا معك فى تحقيق الربح لنا يوم صفين. لو بقيت الحرب فى تصعيداها المؤمن... و لكن الأمة التعبانة - لا أنت و لا أنا - هى التى ضغطت على وقف الحصار، و قبلت بهدنة المصاحف، و لوت السيف و الرمح، و استكانت تطلب الظل!!! و الظل هارب منها منذ أن هربت عليا من الساحة الأولى، و هربت معاوية الى غوطة الشام! الحسين: أنا لا أقول عكس ما تقول يا أخى الامام - فقولك صدق

و نبعة من واقع - و لكنى متيم بأمة جدى، و يضمنى البؤس اذا لم يشبعها [صفحة ١٠١] عجين الرسالة... و عجين الرسالة بطول في الروح، و كنوز في الأرض و فى السماء، و صدق فى العمل، و بركة فى الانتاج... ألا يمكن أن تغتنى الأمة بمثل هذه البركات، و تتمكن من ترقيق سيف و ترس و رمح؟! الحسن: عوفيت يا أخى الحسين - ألسنا نحن من صلب جدنا العظيم، مزروعين فى الأرض حتى نللم أسقام الأمة، و ننشط الروح فيها بالصدق و الحق و العزم؟ انها مهماتنا الكبيرة. و ها انى أقول لك: لن تموت الأمة تحت غمامة سوداء - صحيح أن معاوية يضنيها، و هو اليوم متين، و لكنه لن يبقى فى باطله متينا! سنصمد فى وجهه بالأساليب العديدة: بالحرب اذا توفرت لنا زنود الحرب... و بالمهادنات اذا تضافرت لها الاغراءات المتلائمة مع واقع الحال... و بالمقاومات الصحيحة و المتعددة الأشكال و الألوان، كلما لزم الأمر... ألسنا دائما أولياء أمة نبتكر لها شتى الأساليب فى دفع المكاره عنها، و تجميلها بالأخلاق و المثل؟! سيزول معاوية و ألف مثله، و نبقى نحن للأمة - فى خط الحراسة و الصيانة - نداولها فى كل كبوة من كبواتها المتמادية، [صفحة ١٠٢] و ستبقى هى فى هالات الخلود - لأنها أمة جدنا العظيم: صونها بالحق - و صونها بالعدل - و صونها بالرشد الكريم. لقد انتشى الحسين أو فلنقل بشكل آخر: قد تعزى بهذا الكلام الذى انتهت به الجلسة، فقام مادا يده الى فتاة، قائلا له: - أرأيت يا صغيرى العلى - كيف أن عمك الامام عرى الحزن أمامك من سراويله السوداء؟! الحزن - دائما - هو الجربان - و قانا الله من حزن يفتل معاوية خيطانه على مغازل الشيطان. و مشى الحسين مترنحا بحزن يوشيه صمت كئيب، و معه فتاه، فتح الباب و هو ينادى على غزاله، كى تأتى و تأخذ الصغير ليرتاح فى فراشه، و قد أنهك روحه تعب الروح. [صفحة ١٠٣]

وقائع

- بعد ثلاثة أشهر على وجه التقريب، كان الأخصاء فى الكوفة يلتمون مودعين أهل البيت و قد عزموا على الرحيل نحو يثرب، بعد أن استلم معاوية الكوفة التى بايعته بالخلافة. - قبل سنة من هذا الوقت جرت بين على و معاوية مهادنة قبل بها الطرفان: لعل العراق، و هو أمير المؤمنين، و لمعاوية اماره الشام، و لكن أمير المؤمنين هلك، و تم صلح بين الامام الحسن و معاوية، على أن تكون الخلافة لمعاوية على مدى حياته، و تعود - بعد مماته - الى الامام الحسن. - لقد أملى الحسن هذه الشروط على معاوية، و تم القبول بها بعد أن عجم الامام عود القبائل فى العراق، أكانوا مضربين، أم حميريين، أم كلبيين، أم قيسيين... لقد وجدهم جميعا فى محنة من خوف و جبن: يتشجعون فيعدون، و يرهبون فيحجمون... حتى الولاء فيهم كان مضغة لا يمتنه الوعى، أكثر مما يهيجه الحقد. و الحقد - وحده - لا يبنى شجاعا و لا يطيب سيفاً، بل يكون - فى نظر الامام - دفعا الى انتحار! ثم ان الامام لم يكن مؤمنا بحرب تدفع نصف الأمة لمناجزة [صفحة ١٠٤] نصفها الآخر، لتقلب الساحات كلها الى مخدقات للمقابر!!! - من أجل سلامة الأمة و صيانتها قبل الحسن بصلح لن يسترسل معاوية بالتقيد بمضامينه - لأنه داهية خداع، و أسير حقد سفيانى على مطلق طالبى، و من أشد المتهاكين على خزن الدنيا فى عبه ذهباً و مجداً و سؤداً - ولكن الوضع الراهن جعل الحسن يقبل بصلح يجمع شتات الأمة و يلحم نصفها بنصفها الآخر، ليكون التنازل عن الحكم من أجل ازدهار الأمة و لحمتها، قدوة للحاكمين الوافدين مع أى جيل من أجيالها الطالعة تخلقهم الأمة من معدنها الأصيل... لقد كان التنازل و انشاء الصلح، من أجل سلامة الأمة، و من أجل احياء القدوة، لا من أجل معاوية بالتخصيص، و لا من أجل سلامة الحسن بالتعيين. - و خطت قافلة أهل البيت من الكوفة نحو يثرب، على المحطات ذاتها التى يغشاها كل المسافرين... منذ سنتين مشتتها قافلة الحسين، و اليوم تعود القافلة بقيادة الامام الحسن الى المدينة، و معهم فتى صغير اسمه على الأصغر، و لكنه أصبح الآن يتقن فتل الجمل، و أصبح يتألف فى عينيه حزن رصين!! - و استقر الوفد كله فى يثرب، فى وحدة و سيعه القرار، و أنيقة المسرى، و معينة الأهداف - و كان الامام الحسن القطب [صفحة ١٠٥] الملتزم الى أهل البيت فى كل شؤونهم المعيشية - الحياتية - الفكرية - الروحية، و كانت المدرسة التى أنشأها بمعاونة حبر الأمة عبدالله بن العباس، هى المنتدى الواسع الجامع كل المدينة حول امامهم الوحيد الموقد لهم شموع المحراب... - بعد ثمان أو تسع سنوات من انعقاد الصلح الأبيض، تسلل معاوية من الشام، تحت خافية غراب

اسحم - عبر واقصه و محطات كل العرب... ها هو - بعد منتصف الليل - يتلوى بين الأزقة في يثرب - يقرع باب بيت الامام الحسن - تفتح له جعده بنت الأشعث - زوجة الامام - يناولها كأسا مذهبة، فيها غسل مذوب، وفيها سم أشقر يعدها بفجر ملون و معطر... تبسم هي له... يلتحق هو بسحمة الليل... و لكن نجمة صبح ذلك الليل اختفت... لقد ازدردتها الجرعة!!! [صفحه ١٠٧]

رجوع القافلة

و لكن القافلة التي أقلعت في ساعة من ساعات الليل، قد تركت الكوفة، في عملية كأنها نوع من نزوح، و مرت في «واقصة» و خطب طويلا من الصحراء، ثم حطت في مدينة يثرب. من هم الذين كانوا فيها؟ بحكم الطبع، انهم العائلة جمعاء: رجالا، و نساء، و أولادا، و أطفالا، و حراسا، و عتادا، و حاجيات، و ما اليها من مستلزمات. و لكني لم أر أحدا من ركاب القافلة، الا الصغير عليا، لأن نفسي أصبحت مقطوبة بفتي بدأ يترنح في بالي كأنه هو البيت بكل ما فيه: و هو القافلة و كأنها ما انشدت الا له، و كان الصلح الأبيض الذي مهد له جده الامام الأكبر، و أتم انجازه عمه الامام الثاني، انما هو الاطار الآخر: ظاهره الواقى لملمة أمه و صيانتها من انهيار الدم... و جوهره الخافي وقاية الامامة التي ستكون له في ما بعد حتى تبقى في حرزها الأنيق، تتعهد السهر على الأمة، و تمدها - من مناهل الرسالة - بكل ما يجعلها أمه مؤمنة حية تجتاز المعابر المدلهمة، و تنجو من مخاطر الانفراط. [صفحه ١٠٨] لقد بدا لي أن هذا الفتى المعدود في خط الامامة، حتى من قبل أن يولد، هو - فعلا - طاقة مميزة تشير اليها و فرة من الدلائل: ربما تكون فتحة عينيه و نوع المدى فيهما و هو طفل صغير، هي واحد من الأدلة التي تفرده عن الاطفال من عمره الذين ينظرون اليك و كأنهم لم يروك... ربما تكون خطواته الأولى التي مشاها في صحن الدار، بيدين لا تتأرجحان، و بقدمين لا تصطكان - هي أيضا دليل يفرده عن بقية الاطفال من عمره، و الذين لا- يمشون الا و أيديهم تفتش في الهواء عما يتلقطون به حتى لا يسقطوا أرضا - و ربما يكون - و هو في حضن أبيه يصغى اليه يتكلم، و عمره أقل من سنتين، و يبدو غارقا في صمت و اندهال، كأنه يستوعب ما يسمع - دليل ثمين آخر، يفرده عن بقية أترابه الذين لا يسمعون كلاما منك حتى يغرقوك في ثغثات لا هواده فيها. و لكن ذلك و ما شابهه، قد يحسب تغنيا يتلذذ به الأهل و هم يحدثون زوارهم عن أطفالهم الأحباء... الا أن شيئا من هذا كله لم يكن في هذا الفتى أقل من ظاهرة ملفتة للنظر، تأخذها منه في تسلسل تلقائي تلمحه كلما توضحت فيه الاشارات مع سياق العمر... أن هلهه - مثلا - أمام جده الامام و هو مضرج بدمه، قد صبغ وجهه بقرمز غريب لا- يفرز مثله الا- ويريد آخر يتمكن من استفحال المصيبة من مكانها الأليمة، و هو يتحسس فيها الخطر الجسيم! منذ أن غاب جده من تحت ناظريه اشتعل في عينيه وجد [صفحه ١٠٩] نحيل، راح يغطي فيه غضون الوجه و لا يمسحها الا بزهو مشلول! لا يحلو لي استباق الأحداث قبل الوصول اليها - وجهها لوجه - و لكني الآن ألمح بشي - على سبيل توضيح ما أقصد تبياناه - فأقول: من هذه الطفولة بالذات التي أصف بعض دلائلها في امامنا الكريم زين العابدين، تضافرت عليه في ما بعد، و هو في نضج العمر، روافدها نقشا و حفرا، فاذا هو الساجد المبدع، و المصلى الرفيع الولوع، و الزاهد الملون بخشوعه الأمثل، و الفنان الكبير في انتهاج الأدعية، و المكمل الأوحد نسيج انشاء منيع، ما تناول مثله نسيجا على قرطاس الا جده علي في نهج البلاغة. نعود الآن الى نولنا الذي نحوك عليه فنقول: و لو كان عمر علي الصغير أربع سنين، عندما شاهد جده علي المحفة الخرساء، فان الذي جذبته الى جده كان من نوع اللهيبي، فسبحان الله اذا كان لنا أن نسأل: ما هو لون اللهيبي؟ ان لون اللهيبي عجيب غريب، يحفر ذاته في السليقة من دون أن تدرى السليقة كيف انشوى فيها الحفر السكيب... من هنا كانت الدلائل التي و صفتها فيه، كأنها فريدة في تكوينه النفسى الأصيل. لقد لمحتها هكذا - في ملامحها عليه - لا من قراءة الحروف، بل من التلقظ بالصدى المنبعث من وهج الحروف... أنا لم أقرأ حرفا واحدا يصفه عندما اعتصم جده بالصمت البليغ و لكني رأيته بعيني الباطنية - بعد التفات الدهر [صفحه ١١٠] بطيات القرون - رأيته يمتص حزنا جليلا تلازم به كل السنين، أما التلازم هذا فكان في النهج، و كان في التعبير. سيكون لنا أن نرى الامام زين العابدين صورة طبق الأصل عن الامام أمير المؤمنين: قولا و فكرا و نهجا. لكأن حروف نهج البلاغة هي التي ركب منها روائع البيان في سجوده

الأمثل. تستوقفني مليا كلمة التلازم، ففيها كثير من معانى الاحتواء الذى هو مجموعة الأهواء الفاعلة فى التكوين النفسى البانى شخصية الانسان. ان تضافر الصفات الجليلة، و تفاعلها فى عمق الذات، و توافرها فى الاحتكاك و الاندماج هى التى يحييها الشوق، و يوحدتها التلازم، فاذا هى تسلسل متتابع الدفع و بليغ الأداء... أما الصفات فهى المكتسبة، و هى التى تعلق فى بطانات النفس، تنعشها و تنتعش بها فى عملية التلازم و الالتصاق. و بطانات النفس انما هى قماشة مخملية الزغب، تجذب اليها ما تكتسبه عن طريق الامتصاص، لتكون كالشعيرات، تتأجج بما تمتص، فتعافى غزاراتها لتنمو و تورف بها ظلال الفكر و واحات الروح. ان الصفات الكريمة و المتشعبة الأضلاع، هى التى تتغازر فى تناسقها، و تتمادى فى التغازر حتى تشير أخيرا الى لون كل عبقرية تبرز فى مجتمع الانسان. أما زرع الصفات فى النفس، فالمتكفل بها هو المجتمع بالذات يزرعها فى الناس و هم فى بطون أمهاتهم أجنه. و يكون [صفحة ١١١] الزرع أجنى و أوفى و أصدق، كلما عاد عمر المجتمع الواعى الى الورا آلاى السنين... أليست هكذا تتفسر معانى الأصالة و العراقة فى مجتمعات الانسان؟ لطوية النفس آثار و أسرار، تبوح بها السمات فى الوجه و العين - من هنا كان التجاذب بين الامام على الكبير، و الامام على الصغير، مضافا على الاثنين قابلية من وحدة المصدر، تلتقط بها الطفل محمولة بذاتها من دون أى وسيط. و خط الامامة هو المصدر الموحد، لأنه من نوع التلازم و الالتزام - ان فيه البليغ من الايحاءات الفاعلة من لوحات الطوية التى هى خزان الاحتواء - تأخذ منه العين، و كل خلجة من خلجات النفس، صبأها الزاهى و مداها المميز. تلك هى المعجزة التى اجترحها النبى الكريم فى حفر الامامة و انزالها فى النفس طوقا و وشما، حتى تكون الامامة - بحد ذاتها - اطارا سنيا لاحتواء رسالة يخلد بها مجتمع الانسان - لقد أناط حراسة الرسالة و صيانتها بالامامة، بعد أن نزه هذه الامامة و وشاها بخزانات العلم و الادراك، و بعد أن جعلها تخصيصا، و ألزمها بكل أناقات الروح، و بعد أن عينها خطا منسولا - اماما من امام - فى سجل رسالى يضىء ذاته بذاته، لأنه موحد الدفة و موحد القرآن، و هكذا لا يمر قرن من السنين أو قرنان، الا و الأمة فى حد مكين، يجمعها الترسخ و الاستقرار، و ينورها هدى الرسالة، [صفحة ١١٢] و يثبتها الحق الرفيع. فلتفعل التأثيرات النفسية فعلها المباشر على الامام الصغير، و ليمغنطها خط الامامة من ذاتها فى ذاتها، بالتناغم الحى، و ليكن ذلك فيه نتيجة احيائية تجاوبية بنى بها منذ أن استمدت - من باعثها - و حيا فاعلا فى الرقعة النفسية المعهودة فى الامام على، فى تنقل منبثق عنه، الى صلب منه موصول به، و منوه عنه فى التدرج و التعيين... فالرسالة ما تركت من بالها - أبدا - تنسيق خطواتها فوق الدروب. لقد كان التنظيم المسبق من ضمن تعهداتها فى ضبط أسماء الأولياء الذين سيكون عليهم فى الغد الآتى توجيه السفينة فوق أمواج العباب. تلك هى الامامة فى مرماها البعيد. انها احتياط الرسالة فى تنجيتها أمة من التخط و التشويش، ما صانها منهما بعد و عى منظم، و هذا قول معاد و مكرر: لو أن الأمة تمكنت منها حقيقة الرؤيا يوم اجتماع السقيفة، لكان لها حتى اليوم حصاد ثمين... و انطوى الامام على فى دثار من كفن، و انصبغ وجه الامام الطفل بكآبة ملفوفة بفرح مكتوم، ثم استفاقت به اشراقه ملحوظة استجم بها فى حضن عمه الامام الحسن، كأن الخيط ما انقطع، و كأن التناوب الباقي هو الوصل المؤمم. و سارت القافلة من الكوفة الى يثرب، و هى تمضغ خذلانا محفوقا بخذلان! انها الأمة العريانة، رقعت ثوبها الممزق، [صفحة ١١٣] و استكانت فى حفر الظل!! لقد اشتروا لها صلحا أعور، درأوا به لحمها و عظمها و دمها: عليها تسترد جأشها المهدور فى ذل الحفر!!! كل ذلك كان فى لون وجوه الراجعين، و لقد انعكس - هو ذاته - فى وجه الصغير الذائب فى قلب الحاشية... لقد كان الحديث كله تحليلا و تعليلا لواقع مقيد بتصرف لا مندوحة عنه... عسى الأمة - و لو بعد حين - هى المتمكنة من و عى يصحح لها وحدتها فى حقيقة الالتزام. ان القافلة الآن، تستقبلها عناصر الأنصار فى مدينة يثرب. [صفحة ١١٥]

يثرب

و يثرب؟ انها المدينة المنورة، لقد ولد فيها من أضواءها بشمس خلدتها بالأشعة. يا للولادات البهية، تفرك التراب و تعجنه باكسير النور، فاذا هو حياه يشع بالجمال حتى لا تنطفى شمس... انها يثرب، أى شأن يكون لها - بأزقتها الفقيرة، و بيوتها المضروبة من لبن

الطين -! لو لم يولد من طينها نبي خفقت به شمس لا تغيب؟! الى يثرب هذه عادت قافلة الحسن والحسين، وعلى الصغير، لأنها مهبط رؤوسهم، ومهبط رأس من نورها، وبنى فيها مسجدا من شمس، وثوى فيها حتى تبقى حية بخلوده. ويثرب - حتى ولادة الرسالة - كانت أزقة متداعية، وبيوتا من طين، ستذيبها الشمس على مهل، وتطمرها سافيات الريح!!! ولكن الرسالة التي لملمتها الهجرة، وصاغت لها رقما حسابيا زاهيا في صفحة التاريخ، هي التي جعلتها مدينة مرسخة الجذور، لا تقوى على محوها عاديات الزمان، وكفكفتها بعزم روحى مشتق من صلابة الانصار، عاشت به حمية الرسالة وشعت، لتبقى يثرب [صفحة ١١٦] منورة بالوهج السنى، من دون أن ينطفئ لها ذكر، حتى ولو ذابت حجارة وطينا من على صفحات الرمال. وراحت الدار المرصوصة بعضها الى بعض فى وحدة الحيطان، تنشق أبوابها لاستقبال الوافدين والمرحبين بعودة أهل البيت. بالأمس تركهم الصغير على، وقدماه فوق الأرض شحيحة الوطاء وخفيفة الزيان، أما اليوم فانه الراجع بعدو رشيق، لا يعدله الا توازن يصنفه بمجال لا دعاية فيه. لقد كان يعين - هو - مجلسه بين أبيه الحسين وعمه الامام، يصغى مليا، و اذا وجهت اليه كلمات أجاب عليها برصانة واحتشام. انها فترات - أظنها رسخته فى الاصغاء الواسع - راحت تطل به على فهم رزين، انما يحتاجه ذوو العقول المتينة فى غوصهم الى أعماق الذات و لب القضايا، وتنبههم الى أى مجال تتمسح به شفافية الروح فى الانسان. وهكذا يدخل العلم الى آفاق الفكر، وتغتنى النفس من رواق المعرفة. انى على شبه يقين من أن الثمانى أو التسع سنين التى قضاها الفتى فى يثرب مع عمه الامام هى التى حفرته بأبجديته الحرف، و علمته قراءة الجمل و أناقة التعبير، وهى التى طبيت عليه الغوص فى أبعاد النفس، وحضرته للكشف عن أسرار الغيايب. ولقد أطلعه عمه الامام على كل رق كتب عليه جده أمير المؤمنين كل جواهر نهج البلاغة، بخط الكوفى، وأبعاده [صفحة ١١٧] الرسالية، و تعاليمه المنظمة بالعدل، والحق، وأطياب السلوك... لقد كان - بين يديه - كالعجيئة فى راحة العجان: تقبل العجن بكل أشواق الطحين، وتسترسل اليه كما يسترسل النور من فتحات النوافذ. وطال الامام - كما رأيناه فى نبذة مرت علينا كما يمر السهم فى عين الرمد - وجيف الموت اثر جرعة من غسل مسمم، قدمه معاوية بواسطة جعدة بنت الأشعث، هدية للرجل الذى اشترى سلامة الأمة وخلصها من نهش الذئاب!!! وطال الفتى - بالمقابل - وجيف آخر، عندما تفسرت له الغاز الجريمة، وتكشفت أمام عينيه مناجم الكيد والضغينة فى كبد الانسان! انها المرة الأولى يلتاع فيها لوعة مكشوفة الجوانب، يحدها عقله، وعينه، وحسه، وعمق ادراكه... وانها الاجفالة الأولى تنط به الى صدر أبيه يسأله كيف تكون الرزية!!! ولكن حزن أبيه ولوعته المجنونة، كشف له عمق الهاوية المحفورة تحت أقدام الطالبين!!! وانكفا الفتى الى ذاته يتذكر... لقد فهم الآن ما معنى ابن ملجم، وفى يده دسة الخنجر!!! وأدرك عمق المأساة، و فظاعتها: فى كيفية اتقان مزج السم فى لعنة السكر!!! لقد مسه تأوه السؤال: [صفحة ١١٨] - هل هكذا يكون الانسان جبلا من جبال الشيطان؟! وذئبا بوجه انسان؟! [صفحة ١١٩]

الحزن يلون الصور

ان لى الآن مركبة مشدودة من خيوط الزمان، لا تدفعنى الى الامام ألف سنة، بل تحملنى الى الوراء أربعة عشر قرنا وهى تبللنى بحنين مزروع فى حزن النفس تنوء به معى محارم الكعبة وأطلال يثرب. كأنى أراها - مدينة يثرب - بعدسة عيني، تغرق فى أساها - كأنى أتنادى الى كل المشارف فيها، ولكنى لا- أرى الا- بعضا من مدارجها، من دون أم أتمكن من تعيين وجهاتها بالنسبة الى مشرق الشمس أو مغربها، كأن المكان ظل من زمان، لا حجارة من مقلع أو وجبة من طين. وهكذا حرت أزور غار حراء فى لحف كريم البروغ فى مدينة مكة، تلتع فى سقفه نجمة قطب، و ادخل بهوا مشرعا فى لحف من بيوت يثرب مقهور السقوف، لا ينهض فيه الا ضريح من ورد أبيض، هو مرقد الرسول فى مسالك المسجد!!! أما البقيع - فى العزلة الصامتة - فهو ردهات مسلوخة من أحزان الليالى الغائرة الأقمار فى أعماق اللحد!!! أنا لا أسأل القلم بين أنامل كفى كم من الوقت بقى يخط [صفحة ١٢٠] على القرطاس فى رحلته الملتاعة والمشتاقة، ولكنى لمحت فى مدى غرقى، أننى صرفت معه وقتا كأنه يطول عشر سنين، ولكنه وقت غير ملحوم الثوانى، لأن

حزنا أخرس كان يشرد بي من مكان الى زمان، و من زمان الى مكان، و هو الذى استعذبت أن أنقع به روحى لقد علقت على كل ذلك: صحيح أن الحزن هو العقيم الأجرب، و لكن شأيب المعاناة، هى التى تغسل النفس بالحزن و تجلو به خبيثه الجوهر. و تابعت على المشاهدات: - منذ أن سكت قلب الامام الحسن، و اعصار من وجوم يقطب وجوه آل البيت، كأن الريح هى التى حفرت فوهة القبر فى البقيع، كأن صدر أمه فاطمة هو الموسوع فى وحده الكفن!!! قبران فى ظل واحد، جمعتهما وحده الظل بالظل فى عملية الضم!!! ما شحت زيارات الحسين لمثوى أمه و أخيه الامام - أمامه ابنه العلى الصغير، و خلفهما امرأة سمراء، يهزهزهم جميعا حزن سقيم!!! - بالقرب من محارم الكعبة فى لحف الجبل السابح فى غلالات من أثر ترى العين الخاشعة تحت أطيايف الظل، شبها نحيلا [صفحة ١٢١] يصلى أمام فوهة غار - انه الفتى على - الساجد الأول المطيل سجود الذكر و الشكر فى حراء ساجد فى عب كهف. مع الصبح المهل يعود الفتى الى جنب أبيه المصلى صلاة الامامة!!! - هنا فى يثرب - على بعد خطوات خافتات، و بين ظل و ظل ناطحين قبة المسجد - يغفو مقام تعلو به ذروات السحاب... انك تسمع همهمات الريح و هى تسبح العلى العظيم بلسان من صلى الله عليه و سلم!!! انه مثوى محمد، يزوره - مع الصبح و مع المساء - سيد من أسياذ الجنة، موصول به رساله مفجورة من كوثر الحق، يربطها الوعد، و يزيهها النور، و يسمو بها نهود العنفوان!!! فلنصغ الى هزعات يموج بها صدر الحسين: - نحن هنا، يا ابنى على - نتناوب السهر على بوابة الدار، حتى لا يتسلل لص من يمين، أو عاهر من يسار... اننا حراس العهود - هكذا غرسنا الوعد: سماكا بعد سماك - ألا ترى جدك عليا كيف انطوى خلف الحجاب! و سدده فى الفىء عم لك، ما استدعى حتى أجاب؟ و ها أنا - اليوم - لا [صفحة ١٢٢] أخاف و لا - أهاب!!! و ها أنت - من بعدى - مبنى لمجابهة الصعاب... انها الأمة - يا ابنى - نظنها بلا عمر، و لا الا لها العمر المديد: انها الجد فى الابن، و انها الابن فى الحفيد!!! انها الخط المتماذى فى شعاب الأمس، و انها البقاء المتنامى فوق الدروب!!! انها روح الله فى الانسان و سر الشمس يطويها الغروب... ثم تسترجعها و مضه الصبح كأنها ما غابت و لا تذوب! - جدك النبى هو العظيم، يا كل أبيك فى برزة الميراث، لقد جمع للأمة كل مآتيها للغد النامى - و لولاه لكانت فى مهابط الانهيار! و انهيار الأمم هو انخساف الى درجات الذل المبيد، الى فناء فى جحيم الأبالسة! - ان الرسالة هى المستردة زهوات النعيم، و هى - فى الموازاة النابضة - تلبى باعثها بنسبة ما تحققه هى - الأمة - من عز، و قوة، و مجد، هى كلها حقيقة وجود مجتمع الانسان!! و انها تقصفه الى خييات الفشل، بنسبة ما تخف قابلية المجتمع فى الالتزام المنيع... و الرسالة و عى، و رصف، و لمه دستور... [صفحة ١٢٣] أما نحن - الأئمة - فاننا الملمزمون - نلون بوابات السهر بما يلزمها من وعى مقيم، و الا فان الأمة هى المفككة المهدورة، و ان النبى - نبينا - هو أيضا ذلك المهدور!!! حاشا للأمة أن تضيع ما اقتنصت على يد من لا تأتى الدهور بمثله عبر آلاف الحقب... - قدم جدك النبى للأمة شمول الدستور - فاذا هو وحده فوق الأرض، و وحده فى عالم النور. - و قدم لها جدك الامام نراه العدل، و قسطاس الحق، و نقاوة الضمير... فأى شىء ينقصها غير الغرف من نقاوة الوجدان؟! - و قدم لها عمك الأمل، أمثلة فى روعه التجرد و سلامة التوحيد، حتى تكون سالمة من القهر، و من الذل، و من التشريد، فأى شىء هو الأجدر لها من التفيت و التبيد؟! - و سانجها أنا من ذل لم ينفعها فيه صلح كالثلج أبيض، و سأحاول أن أفديها بدمى حتى تتعلم أن ذل النفس وباء فى المجتمع، يضمنه [صفحة ١٢٤] و يلاشيه، و أن الرفض يعود فيبينه بعنفوان يتحرر به فيحييه! - ان العنفوان الذى هو قيمة رفض المكر و الهوان، هو الذى يبنى المجتمع من جديد و لو استمر الذل الى ألف ألف عام! - أما أنت يا ابنى فانى أترك لك تعيين اللون الذى تحتاجه الأمة من نور هديك: و أنت روح تذب عنها حزنا لا يزال يكبه على الأمة أفواج الزناديق!!! كأنها كانت تنهمر نبرات الحديث الشبيه بالوصية، من كوة مثقوبة فى سقف ليست تحته سواتر الجدران الا أنه سقف تغلفه الريح بعجاج من غبار - عندما أطلت على الفسحة المكشوفة، امرأة تخبىء فى عينيها دفقتين من عطف و حنان، و فى يدها كوب تقدمت به من خلف الفتى - كأنى سمعتها تقول: - لقد تأخرت يا ابنى عن تناول جرعتك من الدواء، و لن تتخلص من الأسهال اذا كنت هكذا تنسى أنك به مصاب!!! لقد أصيب على الأصغر، و عمره الآن مشرف على ثمانية [صفحة ١٢٥] عشرة من السنين، بأسهال عنيف اثر الصدمة التى نالته من وفاة عمه الامام. لقد كانت تنتابه الأعراض فيشفى

منها لفترة طويلة، ثم تعود فجأة ولا يتخلص منها الا بعد معاودته تجرع الدواء: انه تركيبة خاصة من سبع حشائش تنبت في ارض البادية، تغلى - ممزوجة - على نار، و تبرد، و يسقى المريض من نسغها عدة أيام فيشفى. و يقال ان هذا المرض من الاسهال يكون نوعا من الحصى في المرارة أو في مجارى المثانة، و لا ينجو المريض من عوارضه المؤلمة الا بعد مداومته استعمال الدواء هذا مدة عشرين يوما بانتظام، فيشفى المصاب، و تطول أو تقصر سلامته بالنسبة الى دقة الاعتناء بنظام المشرب و المأكّل، بحمايتهما من التلوث ما أمكن. كان الحسين يلقي حديثه شذرات شذرات، و هو متربع فوق أريكة بيضاء، و قبالة فتاه على رابض على ركبتيه مطرق في اصعاء السجود. سمه صوت أمه غزاة، فانقتل نحوها، ثم تناول الكوب فشربه جرعة واحدة، ثم مرغ وجهه بكفها و زرع عليها قبله طويلاً، أخذتها منه مهتلة و سكبت روحها في الكوب و انسحبت كأنها نوع من النسيم. أما الحسين فانه تلفلف ببعض و شاحاته، ثم تناول كنفى ابنه، هزه هزتين و هو يقول: - ثلاثة أشياء - تنام في بالى - حان لك الآن أن تستوفى منى و هى لك: [صفحہ ١٢٦] أولها السهر على عافيتك التى هى فرض عليك لتأدية مهماتك. فأنت للامامة الموصولة بالرسالة، من أجل أداء الفريضة الموكولة بك، فلا يجوز لك اهمال الفريضة. ان الأمة فى خط الامامة، هى اطار جدك فى الخلود. و ثانيها - فى خط التلازم و التكامل - هو ربط الارث بمقوماته المستمرة، لأن فى الانقطاع و قوعا فى فجوات تعرض الخط الامامى لفتاوى تتناذب بها و فيها التأويل الصريحة و الصحيحة، لأن الامامة تعيين مسبق، شدة المصدر بخيط النسل، لا من أجل نقاوة النسل، بل ابتغاء لتوحيد مصدره فى تسلسله الفكرى - الروحى الموصول الوجدان بالوجدان. ان الاتصال الوثيق هو الكفيل بعدم قطع الخط المناقبى المرتبط به جوهر الرسالة... ستكون الثقافة الممتنة - هكذا - بوحدة خيوطها، منال الأمة فى مسيراتها المجدية على دروب الحياة. لهذا أقول لك: مثلما أنت بالذات تكون من بعدى الامام الرابع باسم على الأصغر، هكذا سيكون منك بالذات الامام الخامس باسم محمد الباقر - ستكون فاطمة ابنة عمك الحسن - بالذات - أم الامام الباقر - فيها فى [صفحہ ١٢٧] غدا يا ابنى، و اربط خيطك بحبل الأمة المخضب، و امش بالوعد قبل أن تنالنا - باصبعها - كف المكيدة - أن الله عزيز حكيم. أما ثالث الأشياء، فقد زالت أسباب الاحتياط من عدم كشفها عليك - لا بل ان اطلاعك عليه يوسع على نفسك جمالين أثيرين يسرلانك بحزن أنيق... ما كاد على يسمع كلام أبيه حتى رفع رأسه اليه. و فتح عينيه باستفهام وسيع و دهشة مستعجلة، فتناوله أبوه بذراعين مطمئين و استأنف التعليق: - لقد عينت أنا لك الآن اسم زوجتك فاطمة ابنة عمك، لتكون أما لامام من صلبك - و كذلك عين جدك الرسول اسم زوجة جدك الامام أمير المؤمنين، فاطمة الزهراء - ابنته و من صلبه، لتكون أما لامامين هما: عمك الحسن، و أبوك الحسين، أما جدك الامام على، فانه عين اسم أمك... و لقد ظننتها أنت غزاة، و الحقيقة أنها جارية و أم ولد - أنمتك بالرضاع، و أخذت دور أمك بالعطف الكبير و الحذب الفريد، لأن أمك ماتت بحمى النفاس، و لم تلمحك الا بعين سكرى بنشوة الموت... ان اسمها شهزنان بنت بزجرد بن [صفحہ ١٢٨] أنوشروان... لو تدرى كم كانت عظيمة ابنة الخيرتين: الفارسية و العربية، و كم كانت جميلة و بهية زوجة أبيك الحسين!!! أرايت كيف يكون الحزن رضيا عندما لا يكون أسود أجرب؟! و الحقيقة أن حزن الرجلين كان الآن قويا شديدا، و لكنه كان عزيزا رخيا، جعل الأب يطرق عليه، و جعل الابن يتسم به، و هو ينهض آخذا بيد أبيه، يكفكفها بالدمع و القبل، ثم يتأوه: - لقد عاشت أمى شاهزنان من جديد - فى عيني أمى الثانية بجمال عزيز الأخذ و جليل البهاء!!! ألا تسمح لى يا أبى أن أعجل الى صدر أمى النقية، فأضمها الى شعاب صدرى، و أحررها من اسم جارية، و أزوجه - كما يقتضى منطق الحق - من سيد تزيد أناقته امرأة اسميتها أنت غزاة؟! قى تلك الليلة - و لست أدري لماذا توفرت لى فيها غزاة المشاهدات، على الرغم من شعورى بأنها كانت سوداء شعناء - قمت بزيارة صديقى أسعد الهجرى، فهو أعز من هفا اليه قلبى فى حاشية أهل البيت. و أصدق من سهر على أبواب الحسين، و أكتهم، و أنبههم، و أذكاهم فى أنماط الحراسة. حسبته - لما اقتربت من بوابة المدخل - سيفا مخبوءا فى غمده و محفورا على [صفحہ ١٢٩] خشبة الباب، و لما دنوت أكثر، تبينته مسلولا يخطف عمة الليل - قلت له: - كيف تموه ذاتك فى غمد الحسام، و أنت انمزاك من قرابه؟ و تبسم و تبسمت، ثم انحنى بى الى لطوة مهجورة و قال: - أتعرف أن الوليد بن عتبة، ابن واحد سفيانى من بنى حرب، الحاكم سعيذا مدينة

يثرّب - هو الخارق - لا أنا - عتمّة الليل؟ لقد جاء يعنى الينا وفاة معاوية و يربطنا بمزيد الأسى على رجل مات و لا تزال تسيل من أصابعه قطرات السم. و لقد جاء أيضا يشتري سيدنا الحسين، و يغريه بالعافية اذا بايع بالخلافة ابن معاوية يزيد الفهود و قيس القروذ. سيشهد نصف الليل انسلالنا جميعا من المدينة الى محارم الكعبة، حتى نتدبر من هناك شؤون الغد!!! أما جعده الشعثاء - مصدقة الوعد - و خائنة العهد، فانك طلبت منى فى الأمس عنها خبرا... فاعلم يا صديقى أن الجو كله هنا [صفحة ١٣٠] قد أهمل عنها الخبر. لقد نزحت و لم يعرف الى أى جحيم قد ارتحلت! فى هذه الأثناء فتح الباب و خرج الحاكم فودعت صديقى الذى انعطف الى الداخل، و أقفل دونى الباب... و لكنى انزلت خلف الحاكم من بنى حرب و هو من المنسلين أبدا فى عتمّة الليل، و قد أصبح فى طوق من عشرة رجال كانوا متخبئين خلف الزوايا من الزقاق المعتم - انهم الحراس أن دعت ملمة... و لكنى اقتربت و تصدّيت، بعد أن تكفكفت بأعراض الجنون: فاحتوانى القوم، و سيوفهم قد اهترت فى قربها - و ما تهيبت بل تقدمت أسأل، و دار بينى و بينهم هذا الحوار: قلت - أنا واحد من نزار... منذ وقت طويل و أنا أبحث عن امرأة اسمها جعده بنت الأشعث... لقد كانت فى حرم الحسن... و لكنه مات... أما هى فانطوى عنها الخبر... فهل أحد منكم يعلم كيف ذابت بنت الأشعث؟! قالوا - هلا سألت عنها بنى الحسن؟ قلت - و لكنها تبخرت من أجواء كل بنى الحسن! قالوا - و أين تظنها اختفت؟ قلت - ألا تظنون أنها فى قصر من قصور يزيد [صفحة ١٣١] المطلية بالعندم؟! قالوا - و لماذا عند يزيد؟ و فى قصر من قصوره المطلية بالعندم؟ قلت - لأنه وعدا بالزواج منه، اذا تمكنت من انعاش نفس زوجها الحسن بلعقه من غسل أبيه معاوية... قالوا - و هل فعلت؟ قلت - بحكم الطبع قد فعلت أكون قليلة و طأة الاغراء؟! قالوا - و هل يتزوج خليفة المسلمين من عاهرة؟ قلت - أياكون يزيد خليفة المسلمين؟ قالوا - بحكم الطبع انه خليفة المسلمين أكون قليلة و طأة المبايعه؟! قلت - و هل يكون يزيد الخليفة أقل منها عهرا؟! ما انتهيت أمام هؤلاء الأبطال الأشاوس الى مثل هذا القول الأجر، حتى أطبقوا على بنعالهم... و لكنى تسللت من بين النعال، و عذت بعتمّة الليل، و نجوت... بعد نصف الليل بقليل، فتحت أبواب دائرة الحسين، [صفحة ١٣٢] و خرجت هودج النساء و الأطفال، و عدد ضامر من الخيول و الجمال - و تناولوا الخط من المدينة نحو مكة، بعد خمسة أيام تم الوصول. أما أنا فانى قد اندست خلف صديقى أسعد الذى تعود أن يسبق مسير القافلة بساعة من وقت، على ظهر بردونه الأسود... و لكنه كان يمشى على قدميه أكثر مما كان على ظهر بردونه يركب، و هكذا علمنى أيضا أن أخفف عن البرذون الطيب مشقات الطريق. بين الفينة و الفينة كان الهجرى يمتعنى ببعض الطرف من حديثه الطريف، و هكذا كنا نقطع الطريق فى الليل على خفق بعض النسيمات التى فيها شىء من نومة الصبا... قال - هل تدرى كم اماما تحوى قافلة هذا الليل؟ قلت - الامام الحسين، و ابنه الامام الآخر عليا الأصغر... قال - و لماذا لا تذكر اسم الثالث يا صديقى؟ اسم أبيه على الأصغر، و اسم أمه فاطمة بنت الحسن، و اسم جده الامام الحسين... ألا تستهويك رقصة الاسم: محمد الباقر؟! ما سمعت ذلك حتى تذكرت قافلة الحسين - منذ ما يقارب العشرين سنة، لما توجهت من المدينة الى الكوفة... فقلت لصديقى الهجرى، و فى عيني غبار الذكرى: [صفحة ١٣٣] - سقى الله أرض العراق بدفق اثر دفق من نهر الفرات... لقد ذكرتنى يا صديقى بدار الامامة فى الكوفة... لقد ضمت يومذاك - دفعة واحدة - أربعة أئمة: الأمامين العليين - الكبير و الصغير، و الامامين الحسينين... و انقبض وجه أسعد، و بقى و اجما يسرى، فوجمت مثله و سرّيت. بعد نصف ساعة من سرى صامت، توقف رفيقى يمسح عينيه بكفيه - لقد عكرهما دمع ملون - و توجه نحوى كأنه يسدد جوابا على قولى السابق: - لو لا بغاء «جعده» لما كانت تشوّهت روعه الخط!!! فانتفضت سرّيا و أنا أعلق على القول: - ليست جعده البغى الأول، يا صاحبى المحزون! أن السقيفة كلها كانت البيئة الأولى فى تنتين الصدور بقيح الفجور!!! اما العائق على حيطان السدود - منذ عهد عمر الى عهد يزيد - فهو تكرار المكرر فى انتاج سلسلة العهر من بغاء العاهرين!!! ان الطهر الذى يداس - يمتن أقدام الفاجرين!!! و ان العدل الذى يسمم و يرجم، يقوى العزم فى زنود الكافرين!!! يا تعس أمة [صفحة ١٣٤] تقتل الطفل فى بطن أمه اذ توجس أنه سيولد عليا عظيما!!! ما سمح الهجرى هذا التأوه حتى سجد فى مكانه و تفجر بالبكاء! اما القافلة، فانها - اذ وصلت الى مكان السجود - أناخت بالمكان - و راحت ترفع الخيام و تمد البسط، لترتاح من عناء الليل! ما عدت أجسر أن

أترك محارم الكعبة في مكة و أعود: لا الى أزقة يثرب، و لا الى مدارج الكوفة، و لا الى مفاسح تدمر، و لا الى غوطه الشام... خوفا من أن يراني أحد من أعلام يزيد المبتوثين في كل مكان، فيجهز على بعركي تحت النعال... لقد و بلتني اللعنة اذ ذكرت بشفتي اسم تلك الشقية الرقطاء... ثم انى مزوج في حاشية ليس لها صك في العيش، لا فوق الأرض، و لا خلف أية قبة طالبيه محفورة في الجنان، فالنعيم حصر بأبناء القصور المدلهة بدفقات الخمر، و ان للمجون - وحده - جواز المرور من رخاء الى حبور!!! اما الأمة كلها فلتطمر من جديد، و لتكتب ارثا لخلافه نبوية ينقلها معاوية لابنه يزيد!!! ليست هذه الصورة البيانية من تلاعبات الخيال، بل انها مجاز الى واقع حياتي تعاني ثقله الأمة، من مرتفعات البصرة حتى [صفحة ١٣٥] منفسحات الحجاز، حتى السواحل كلها من أرض الشام... ليس فوق الأرض - بعد مقتل الحسن، و انفتاق عين ابن أبي سفيان - الا مبايعات تمشى بنعال فوق الرقاب ليس أمرها مكتوما، بل معلن مسنون: - سجل مكرها - بيعتك ليزيد، و الا فعنقك المدوسة!!! و مكة المكرمة!!! بيض الله لها الوجه الكريم!!! و انها لا تزال تحافظ على ارثها الحضاري العريق، في محارمها حول الكعبة... انها الكعبة المكرمة، و هي حتى اليوم أوسع محجة لملايين الأتقياء المؤمنين، يحجون اليها و يتبركون. لقد وسعها النبي الكريم، اذ رفع فوق مدا ميكها الحجر الأسود، و بهر بأنوار العلى، و حزم الكعبة كلها بمجال الضوء، و جعلها قبة و حرما... هنا - راحت تصان كرامات الناس المحترمين فيها، و لا- ينالهم أى أذى ما بقوا فيها المحترمين. لقد التجأ الى الكعبة ابن الزبير، حتى ينجو من مضايقات ابن معاوية، و التجأ اليوم كذلك السيد الحسين، حتى يصون - موقنا - عنقه من نطع يزيد... و لكن... الى متى يبقى اللجوء الى المحارم المنزهة، و الى متى تبقى ملجؤة عنها حجارات المنجنيق؟ [صفحة ١٣٦] و انعقدت فى المساء جلسة (أعلنت فيها القرارات). لقد كان صديقى الهجرى يؤمن لى دائما مقعدا صغيرا فى الزاوية الصامتة من القاعة السرية ذات البحوث التقريرية فى شؤون الجماعة، لأن الحسين كان يثق بى، و كان يأبى الا أن يشعرنى بانى خيط من قمصان أهل البيت، لا لشيء الا لأنى موال قديم للرسالة الفخمة المنبثقة من عب النبي العظيم، و قد خيمت عليها ظلال على، و هو العظيم الآخر الذى عشقت فيه شبكة المكوك. ما أن دخلت القاعة حتى احتوتنى بكل اظلالها: كان فى الصدر ربوض الحسين، و الى يمينه على الأصغر و قد أصبح تقريبا فى الثالثة و العشرين، و ما بينهما جالس - مستكينا - محمد الباقر، بوجهه البهى و شعره الأجعد، و هو بنهدة الأربع سنين - انه عاقل يصغى... لقد أحيى لقطة لا تزال عالقة فى بالى عن أبيه على الأصغر، و هو فى ذات العمر فى قصر الامارة فى الكوفة - لقد كان على الأصغر - و قذاك - جالسا بذات الوضع يصغى لحديث دائر ما بين أبيه الحسين و جده الامام على - و كان معهم أيضا الامام الحسن... قلت فى نفسى: هل يكون التصرف فى مثل هذا التطابق فى نشأة الأئمة؟ و هكذا انزلت الى مقعدى الصغير فى الزاوية و أنا أتأمل... أما أخو الحسين، محمد بن الحنفية، فهو فى مكة منذ يومين أو ثلاثة أيام... على طاولة محبوبه من قصب غزار فارسى، رزم كبيرة من ملفات ورق خشن، مربوطة بخيطان من نبات الليف الأسمر... على الباب واقف أسعد [صفحة ١٣٧] الهجرى... ماثلة مغروز فيها ثلاث شمعات تضىء المكان... رهبة خاشعة تربط السقف بالحيطان... قال الامام الحسين: - نحن فى مكة منذ ما يقارب السنة... أظنها انتهت عمرتنا الى البيت الحرام. بعد ساعتين على الأكثر نركب الخط و نمضى - لا الى المدينة و لا الى اليمن، بل الى الكوفة، حيث تلتف عظام أبى على بسنا الحق... لقد انسللنا تحت جناح الليل من تحت عيني الوليد بن عتبة، فعتب علينا الرجل لأننا ما و دعناه - و سننسل الليلة من بين يدي عمرو بن العاص قبل أن يفتح علينا باب الصباح بالمبايعات. انها بين أيادينا المبايعات: ألوف ألوف من الكوفة، و ألوف ألوف من البصرة، و ألوف ألوف لا تزال نائمة هناك لم تترك بعد أرض اليمن و لا مفازات الحجاز... سنحملها معنا حزما حزما فى هذه الملفات، لا لنطالب بها مساكين الناس هنا فى الحجاز، أو مساكينها هناك فى العراق، بل لنحفظها و نجعلها سياجا اذا علينا تجت أحاديث الفتنة!!! فالأمة تطلبنا بلسانها المحتاج الينا، و بشوقها، و بكل حنينها المجروح!!! فاما يذوب الخوف و تنجلي [صفحة ١٣٨] البطولات - عندئذ - فنحن لها فى حقها المشروع، و نحن نحن استنتها البيضاء... و اما يسد عليها الجور و التعدى أبواب العزم، فتنام فى سراويل القهر، و تتركنا فى الساحات نللم لها - وحدنا - خيطان المجد من دمنا الرافض قبول الذل، و الراضى بطعم الاستشهاد!!! أظن جدنا النبي هو الزارع فينا حقيقة العزم و شرف البطولات!!! و

أظن الأمة ستجدنا في طرف الميدان حمايتها المطيبين تحت السرداق الأكبر!!! اننا لها - في مجالها الأوسع - فهي سرادق المجد، و سرادق الخلود!!! هل لأحد منكم بعض نصيحة؟ تلملم قليلا- ابن الحنفية... ثم قال: - أخاف أن أقول: ان أهل البهتان هم أسياد الميدان... و لا- أزال أقول: تريث بعد... و اذا ضاقت عليك محارم الكعبة، فقد يكون اليمن أضمن و أنجى... و لعلها في غد تتغير المعادلات... أنا لا أرى سليمان بن صرد و من معه من رؤساء أخماس القبائل في العراق، أشجع و أمتن في قيس بن سعد الذي لم يتمكن في الأمس من مساندة أخينا [صفحة ١٣٩] الحسن... ليس في أقوام العراق ثبات عزوم يساوى الانتصار!!! و بحزم أجاب الامام: - كل القبائل من ديدن واحد - فأى فرق بين ابن صرد و ابن قيس؟ أليسوا جميعا شيوخ قبائل، و رياح مبايعات؟! لعلنا في المحاولة التي تنهيا لنا الآن - مربوطة بالحاحاتها القوية - نتمكن من تغيير المعادلات، و نفهم الأمة التي خيبتها، منذ ثلاثين سنة، المبايعات، أنها لن تجد سويتها الا ببطولة تنجيتها من المماحكات الأثيمة!!! و الا، فان في ضعف عزمها ما يقوى عزمنا على مضاعفة الجهاد!!! ألا تبقى الشهادة مهمازا طويل العمر، يحرك الأجيال للرجوع الى البطولات المتلقطة بأوتار النجاة، و البقاء، و الخلود؟! أنا لست اليوم عازما على أن أضيع فرصة متاحة قد لا أجدها اذا غيرت اتجاهي الى اليمن... انه دورى في الامامة، و انه لوني في تقرير المصير... اما على الصغير الذي لم يغير مجرى سجوده أمام أبيه عندما يتكلم، فانه لبي أباه الامام و أجاب: - اني مأخوذ بك يا أبى الامام - و ان لم تنتصر بالقوم غذا فانك المنتصر أبدا بالعزم [صفحة ١٤٠] المنيع!!! فأنا لك حتى قيام الساعة في الباحة المترع في صدرها جدى الامام... و التفت الى الامام الحسين، كأنه يحرك في نبرة من النبرات... فخشعت و أنا أتللم: - و ان هلعت من المصير، فاني واجد أخاك و ابن أبيك في حزن غير رحيم... و لكنى... و ان يمضنى ألم رهيب... غير خائف عليك من اندحار... ان الثواني لديك، انما هي من لون ساعات أبيك... سيبقى الى جانبك سليمان بن صرد لمعة من سيف ما امتشقه بعد شيخ قبيلة، قد يخذله جبن القوم، و لكنه سيبقى نبرة منسولة من عزم امام اسمه على بن أبى طالب، يرى الحق أطول من أعمار الدهر. بعد ساعتين كانت القافلة متجهة لتخط في أرض كربلاء. كنت لا أزال شبه مسحور في مقعدى الصغير، عندما فتحت عيني على ضوء شمعة واحدة بقيت تنتهد في ذبالتها القصيرة. لقد ذابت من المائلة رفيقتها الاثنتان. تفقدت المكان و علمت أن القوم قد انسحبوا و أخذوا عن الطاولة الملفات المحزومة بخيطانها و رحلوا، من دون أن ينتبهوا الى المطوى في الرواية كأنه دمعته من [صفحة ١٤١] حبر علقت بين مشفرى قل الغزار... و لكنى أدركت - توا - انهم قصدوا - فقط - أن يجنبوني رحلة في رفقة ستشتد فيها وطأة المآسى، و تتكاثر فيها ألوان الحزن الذى لا- يتمرس بمثله الا- نوع فريد من الأبطال المتصلين بالاباء الفذ الذى تصاغ منه - فى الأمم - روعات المكارم. ما أن أدركت ذلك حتى هببت الملم أرجاء نفسى، و فتحت الباب و انطلقت و أنا أهمهم: - لن أتركهم وحدهم، من دون أن أمتزج نسمة بأعصارهم المقلع، من دون أن أشرب نقطة من حبرهم الأحمر، من دون أن أنبث نبرة فى حزنهم المجيد، أو خفقه فى مداهم الأكرم، أو - على الأقل - شاهدا لا تكذب به رحلة التسجيل!!! الا فليصمت التاريخ اذا يقصد أن يتغابى، فالقوم ما ارتحلوا و هم لا يدرون الى أين يرحلون! منذ الزمن الأول و هم يدركون أن خطواتهم فوق الدروب هي الموزونة! لقد وزنها لهم عظيم منهم، جهزهم بالوعى المحيط، يتمكنون به من مد الجسور فوق المهاوى، من لون عمق المهاوى، و من لون مداها، حتى اذا وقعت الأمة فى المزالق، يكون لها - بهم - متدبر يحفظها من حين [صفحة ١٤٢] الى حين يتعدل فيه الانخساف! سيكون المدى طويلا أمام الخط الامامى، طويلا و ملونا بأساليب الابتداع... ان أصالة الفكر و الروح - وحدها - هي المبدعة فى الرصد و التلوين، و ان الاهتمام بالأمة - وحدها - هو تركيز الصيانات فى مجتمع الانسان... و من لا يهتم بمجتمع الأمة يخسر حقيقته فى عالم الانسان. كيف لا يكون الحسين مدركا على أى مفرق من المفارق يلوى ركبتيه، و قد سمعناه - منذ لحظات - يشرح أمام أخيه و أمام سلسلة الأئمة الذين سيتناوبون السير من بعده على كل الخطوط... ألم يقل لهم و لنا بأن لكل امام لونا من سياسة يمهر بها عهده، تكون من صنف المناسبات، و من نتائج ضغطها فى الأحداث؟ ألم يذكر لنا بأى شكل تصرف أبوه فى تصبره على المكاره و الملمات؟! فكان العدل، و الحق، و نظافة الكف، من معادلاته الأنقيات؟! و كيف أن أخاه الحسن ابتدع الصلح الأبيض حتى يلحم الأمة و ينجيها من اراقه الدماء... و ها هو الحسين ذاته

الآن، يترك حرماً أعلى قببه جده النبي، و ختم مدا ميكها بالحجر الأسود الهابط من حضن الضياء. الى أين هو ذاهب هذا الامام الحسين؟ لم يقبل الى اليمن هروبا و انكفاء، أو التماسا رخيصة لنجاة!!! بل الى الساحة البكر اندفاعا!!! يقرعها بزنده و صدره، و رأسه، محوا للذل، و تعزيرا [صفحة ١٤٣] لآباء، و تثبيتا لرفض تأخذه الأمة عنه مثالا حيا تعيد به مجالاتها الأبية في ظل العنفوان. ليس لأية أمة من أمم الأرض رجاء و بقاء، الا في الظل العفيف المدبج بالوعي و حقيقة الآباء! ان درجات الوعي - وحدها - هي سلم المراقى في مدارج الانسان، و ان آباء النفس - وحده - هو الصاعد به لتحقيق نجاواه، اما الحسين فهو ذلك النازل في فسيفساء ذاته، لأنه تمثيل مطلق الدور لامامة مفروعة من صدر جده محمد، ولي الرسالة، و ولي التنزيل، و ولي الجمع المطلق، و هكذا فانه الآن الولي الأوحده المسؤول عن توجيه أمة و احاطتها بلون من ألوان الصراط. هنالك رجل خلع، اسمه يزيد، يغتصب الخلافة بالتزوير، و يثبت حكمه بالفتك و التهيب، و يهدد الأمة بالضياح و الفساد و التشريد، و ذلك تحت سمع الأمة و بصرها! اما التصدى له بالسيف و الرمح و الترس، فان وقوع الأمة في الضعف و الهوان، يبعد عنها الآن هذا المنال؛ و لكن ترك الأمور منساقفة في مجرياتها، معناه التماهى في التردى، و اغراق الأمة في انخسافاتهما، و نهب امكاناتها في التحقيق... اما الامامة، و هي - فى الأصل و مجرد الواقع - فى محل الاشتراع، و فى مركز [صفحة ١٤٤] الحكم، و التوجيه، و الاحاطة، و الدراية، فانها المقصودة الوحيدة - ليس فقط بالتدليل، و التعقيم، و الاطاحة - بل بالحزن و الافناء، مهما اقتضى فن الابداء. ان السكوت - وحده - معناه الرضوخ، و ان الهروب - وحده - الى اليمن، أو الى أى مكان، هو تشديد الملاحظات، و ليس للسكوت و لا للهروب الا معنى الانحذاف من الساحة الفاعلة، و الانشلال من دورة الحياة، أما الأمة، فانها تكون - و الحالة هذه - شاهدة وحدها على ذل المسؤول و عجزه عن اثبات الذات. لهذا - بتعليل و تأكيد من المنطق المصيب - توجه الحسين الى ساحات الصراع، ليس على صدره درع، و ليس فى يمينه حسام، بل فى صدره زرد الدرع، و فى زنده موجات الحسام!!! توجه يعلم الأمة فى الساحة البكر: أن الحسام - ان لم يطيبه الوعي بهزيز العنفوان - يقصفه الجهل بصدأ الهوان!!! توجه الى الكوفة، و فى باله افتراضان متلازمان، متساندان، متواصلان بروعة الرهان... و ابتداء الرهان: - غير الطريق الذى سلكه أبى من المدينة الى الكوفة لن أسلك، ان الكوفة قاعدة امارة أبى، و امارة أبى هي امارتى الموصولة به و صلة المكان بالمكان، و و صلة الزمان بالزمان، و هي التى ربطت الأمة بالوعد، و الوعد بكل مآتى الدهور!!! لأن الوعد النازل من سحب [صفحة ١٤٥] الحق، هو ضمير النبى المنور بالخيال الصافى، و المركز بالمقصد الحى، و المسدد بالعقل الملمم بأفاق الوجود. لقد أصبحت الأمة مربوطة به و هي تحقق ذاتها فوق الأرض و تحت السماء. - مقاطع مقاطع مفاصل الدروب! و انها دروب الأمة، تقطعها عبر الفيافى و البوادرى و الفجاج، وصولا الى و احاتها الخضر! و لن تقحل و احاتها، حتى و لو سدت عليها القنوات! لأن من يسد مجارى الرى مجرم أثيم، و لن تبقى السدود رهينة كفه، ستحطمه و هو ظان انه قابض على مغالقتها، لتطمره فى حفر العطش! - لا بأس بها محطات المعابر - فلتكن طويلة بمشقاتها المشوية بالحريق، طالما أنها تفرز أوشحة يتندى بها جبين المجد!!! ستكون خطواتى عريضة فوق الدروب، حتى تسمعها الأمة و تعرف أنى آت ألملها من لوثات العثار!!! فاذا سمعت و أدركها وعى مجنح، فانى لها فى صدر الشعار، أنسجها صفوفاً مجدولة، و أقذفها نارا تحرق أشواك الهشيم! و لن يطول وقوفها تحت الهجير، لأن من يتنزه على حرمايتها و يلوث ماءها الفرات، ستخطفه [صفحة ١٤٦] مهابة الجدل تتهلل به صفوف الأمة فى قوة لا تقهر، لأن الوعي يزيناها و يرزمها، و لأن العنفوان - أجللها به - سيرفعها فوق الستائر، و هو يدك عهر الفاجرين. و اذا لم تسمعنى، لوقر لا يزال يسد فوهات مسمعها، فانى أكمل وحدى خطوات السير، و أهدر دمي فى انقاذ دمها من الانهدار، حتى ترانى بعينها الأنيقة، و تذكرنى فى حنين القدوة: بانى رفضت الذل من عروقى، و نجوت من حفر الهوان، و بقيت لها فى مشارف الميدان أنادياها لتستردنى اليها فى يوم وعيها الآتى، و لا بد لها من اليوم المنور، لأنها أمة جدى لأنها أمة جدى. تلك هي مصوغة الحسين - و هكذا كان لى أن أشاهد بقية الشمعة الثالثة فى المائلة المثلة الشمعات، تمتص آخر نقطة فى ذبالتها، و تعانق عتمة المكان و تهمد. وجدتنى فى عراء الليل... خيبا خيبا سمعت الوطاء فى صدها الزاحف نحو «واقصة» عبر «التنعيم»، «و الصفاح» و «وادى» [صفحة ١٤٧] العفين... لقد أدركت القوم فى سرى الليل... انهم فى مخابئهم المكشوفة

تحت النجوم... لقد رافقتهم و أنا أمشى على قدمين خرساوين، كأنهما بسكون الليل منتعلتان. ما هدأت، ولا تكلمت، بل انغللت، و تأملت، و اعتصمت بالصمت الشفيف... تحت بلس الخيام انسللت، و مع القوم فى الزوايا رقدت، و من نسيم الليل عببت، و من عطش الهجير - مثلهم - شربت... رأيت العزم يتكلم فى تقطيب الجفون، و سمعت الصبر يتصبر فى دهشات العيون... انها كلها مسيرة العنفوان لعناق المجد خلف رصات الحصون!!! و تم الوصول الى كربلاء من بعد مجهود عباب و خضم من عناء ظنت - عانة الذئاب - انها لفلت قطع النعاج فى الحظيرة، و أحكمت عليه لفات السياج، و نعجة نعجة ستلتهم القطيع على شبع لعشرة أيام!! منذ متى؟ و هذه العانة تطوى نابا و تكشر عن ناب؟! أتكون السقيفة أول العهد، و أدهى من خبا سما و فتكا فى لثة الأنياب؟! و لكن القصة طويلة اذا عدنا الى الوراء نشرح و نسأل: لماذا ألبسوا [صفحة ١٤٨] حواء ورقة التين؟ ان الحسين الآن هو المعرى الهازىء من ورق التين!!! لقد ألبسوا حواء ورقة التين من بستان الخطيئة، حتى يطردوها من الجنة... و لقد ألبسوا عليا بن أبى طالب ورقة تين من بستان السقيفة، حتى لا يدخلوه الى السقيفة... ثم ألبسوه ورقة ثانية من بستان بن عفان، حتى يمزقوه بخنجر... و ألبسوا الحسن ورقة تين من بساتين بنت الأشعث، حتى يمحوا اسمه من اتفاقية الصلح! و ألبسوا الحسين ورقة تين من بساتين المبيعات ليزيد، و لاحقوه من الكوفة الى المدينة، و من المدينة الى مكة، و من مكة الى كربلاء، حتى يحصروه فى حظيرة، و ينشبوا الأنياب فيه مضرجا بالدماء!!! و لكن الحسين ما اتخذ - أبدا - على حين غرة! فهو الذى مشى الطريق بعلمه المسبق، بعد أن حصنه بالاعلام الواسع!!! لم يرد أن يؤخذ غيلة: لا- بسم، و لا بضربة خنجر، و لا حتى بهروب يخفيه مدة عن العيان، ثم يقبض عليه و يستهلك، كأنه قرد باصبع انسان!!! بل انه بطل وسيع الصدر، مهد السبيل لتوسيع الخبر، حتى يشمل العلم كل أرجاء الأمة، بحيث يكون لها وسع السمع و وسع البصر. فهو مقدم على شهادة تشهد له بتقرير المصير و رفض الذل من أجل احياء القدوة للأجيال فتحقق ذاتها بذاتها مع طلوع الأيام: [صفحة ١٤٩] - ان توجيه مسلم بن عقيل الى البصرة كان القصد منه التحضير و اعلاء النفير. - ان التمويه على الوليد بن عتبة حاكم يثرب، ثم الانسلاخ خفية الى محارم الكعبة، كان مقصده تحريك الحفيظة من أجل زرع الاعلام فى تحضير رجال الحكم للملاحقة! - ان الافلات من بين يدي حاكم مكة عمرو بن العاص، كان مقصده أيضا توسيع الاعلام بتحريك الحفيظة و تحريك رجال يزيد للملاحقة. - ان مرور قافلة الحسين على محطات القوافل، كان القصد منه توسيع الاعلام فى نشر الخبر: لقد لحقه فى الطريق: عون و محمد ابنا عبدالله بن جعفر و لم يتركا - و لقد فعل كذلك زهير بن القين - زوج البطلة المخلصة «دلهم» و لقد لحق به عبدالله بن عمر، و لوذان بن أبى عكرمة - اما عمر بن خالد الصيدواى، و مجمع العائدى، و جنادة بن الحارث السلماني، و الشاعر الكبير الطرماح بن عدى - فانهم كانوا يمثلون أربعة آلاف مجاهد فى لحف جبلى أجأ و سلمى من أرض طى - نصحبهم أن يركنوا للسكينة، بعد [صفحة ١٥٠] أن شدد عليهم بأن يوسعوا سمعهم و عيونهم ليروه كيف يتصرف - من أجلهم - فى يوم غد!!! - و لقد تصدى له الحر بن زياد التميمي، على رأس قوة من ألف فارس و منعه من التوجه الى أى مكان غير كربلاء!!! اما عمر بن سعد بن أبى وقاص، فانه القائد العام الذى زنى المنطقة كلها بثلاثين ألف محارب حول حظيرة كربلاء، و فيها مئة و ثمانون - فقط - من النساء و الأطفال، و الجوارى، و الأتباع الموالين، و على رأسهم رجل فرد - اسمه الحسين - مع ابنه المرمى على فراشه و قد عاوده على طريق القوافل مرضه المشهور، بعوارضه الممضة!!! ان اسمه على الأصفر!!! اما سليمان بن صرد و معه رؤساء أخماس القبائل، فان مقتل مسلم بن عقيل، و هانى بن عروة برميمهما من فوق السطوح، أقعدهم مشدوهين مكبلين - و لكن... مصغيين و متأملين... أليس هكذا أراد الحسين أن يوسع الاعلام، و هو يسوق نفسه لينزج فى الحظيرة؟! فلا يظن أحد أن عانة الذئاب، هى التى - بفن ذكى منها - كفكفته من كل الجوانب حتى أدخلته الزريبة!!! [صفحة ١٥١] واهما ثم واهما رحت أهجس: - كيف لى أن لا أؤخذ برهبة الساحة فلا يطالنى منها لا البرق و لا الرعد! فاذا كان لى - بالأمس - أن نجوت من دوس النعال! فكيف يكون لى الآن أن أنجو من رمى النبال، و تكسير النصال على النصال؟! و لكن... لماذا الهجس و الوجس: ما كل نبل يصيب الروح و لا كل نصل يمس! فلتمطر الدنيا نبالا و نصالا من حديد... من نوع نبلك يا ابن الزيادة و من نوع نصلك يا اليزيد... فهى خيوط من غزل العناكب! أو انها غزل من قوم قروء؟! من نبل سقراط غير قوم

قروء؟! من نبل عيسى غير قوم قروء؟! من نبل عليا غير قوم قروء؟! من نبل الحسين غير قوم قروء؟! هم النابلون - أنفسهم - أصيبوا بلعنات [صفحہ ١٥٢] الأمم - واندثروا كأنهم بصاق صديد على أफीء القروء!!! اما الذين نبلوا - أنفسهم - فانهم عمالقہ الذکر - و انحفروا كما سناير النور على صدر الشهيد!!! و امتصنتى الساحة، و لقد رغبتها تمتصنى كما يمتصنى قلمى فى نقطۃ الحبر، و رحت - كظل أفاق من خبل - أتفقد الناس خلف خيامهم المبعثرة فى عراء السكون، و لجج من الصمت تسردقها فى هذا الخلاء الغائر فى خضم من غبار. لقد لمحت كل ما حصل فوق الأرض! و ما انتهت الأيام العشرة بلياليها السوداء، حتى رأيت أن المأساة قد حبكت ملحمتها المملطخة بالاثم، و الدم، و الهمجية الكلداء...!!! لقد رأيت الخيام تتساند مشدودة بالحبال لصقا بلسق، يتكوم فى كل منها: الجمال، و البغال، و البراذين، و المؤن - و النساء، و الأطفال، و الجوارى، و المرضى - و الرجال، و الأهل، و الأصدقاء الموالون [صفحہ ١٥٣] المهتمون بتخفيف أى عناء عن لفيف أهل البيت المتحملين كل هذا البلاء!!! و مهما يكن الشأن... فانهم جماعة محصورة بأهل البيت، لا- تلونهم الا- سياسة تتفانى فى خدمة الأمة و اعلاء شأنها... هذا هو ذنبهم الجسيم، قطعوا به البوادی، و الصحارى، و محطات الحريق... لو انهم جاؤوا لحرب، لكنت غصت الأرض بفيالق المحاربين... و لكنهم جاؤوا ليزينوا الأرض بالسلم العفيف، حتى يراه الحاكم فيصلح به. و لكن الحاكم الكافر المستبد، لم يرد أن يفهم شيئا من رموز الاعتراض، و لم يشأ أن يصلح جزءا من سلوكه القردى - و انهم سهاما و نبالا- على بلس الخيام... قطع الحبال و قصف الأوتاد... و ملأ الجو: سهيلا، و رماحا، و سيوفا، و نصالا، و موتا زؤاما!!! و لم يستسلم الحسين - و دافع عنه رجاله المعدودون، و لم يبالوا بأرير الموت!!! انهم المضرجون بالدم - اسم واحد منهم «عون»، و اسم أخيه «محمد»، و هما ابنا عبدالله بن جعفر... لقد رأيتهما يجاهدان متساندين، فى دفاع يائس حطم جمجمة الأول بين يدى الحسين، و قصم ظهر الثانى... أما زهير بن القين، زوج «دلهم» فانى رأيتة يقفز الى حصان مر من أمامه، و يطعن الفارس من الورا بخنجره، طعنه كبتة الى الأرض قتيلًا، [صفحہ ١٥٤] و هو يقول له: - خذها من يد «دلهم» و لكنه فى عصر ذلك اليوم - أثخنه الجراح، و انعزل تحت بلاس ممزق، يلهث حتى أسلم الروح... لم أعد أعرف لا عدد و لا أسماء المتنادين الى بذل الدم فى الحلبة الحمراء، غير انى هلعت لما رأيت صديقى أسعد الهجرى، بقامته المحبوكة، و صدره الوسع المقدود من صخر - يتلقى بين ذراعيه هبوط الحسين، كأنه خارج من مغطس دم!!! انه يسحبه من أرض الممعنة، صوب نهدة من رمل شكت فيه عشرات الأسهم الضائعة عن اصابة مراميها!!! و لكن وابلا جديدا أمطرهما و أجهز عليهما فى العناق المدمى!!! على باب المخيم أبصرت شبعا يسحب رجله سحبا هزيلا!!! عرفته!!! لحقت به من الورا، فتاءه هى عمته زينب، كأنها قفص من حزن يابس - كفكفته بخمارها، و عصبتة بكفيها، حتى لا يرى هول الجريمة!!! [صفحہ ١٥٥] بعد لحظات خرساء - نقلنى الأسى الى المريض المفجوع - ألقيت فمى فى اذنه أوشوشه: - أنا بعض منك فى الأسى الأسود... و لكنه لا بد لى من أن أذكرك - و لو فى الساعة العصبية - بأن أباك العظيم لم يسمح لك - و أنت الامام - بأن تأخذ حزنا، مهما طغى و تجبر، من دون أن تعريه من قمصانه السود... و نبهك الى أن الحزن هو - دائما - الأجرب... يشل طاقات الروح، و يسد عليها مجارى الفكر و مدارج السمو... ما رأيت أشجع منه و أروع... لقد سمع خفوت ندبى فى خفقتى المهزورة... و أدار عنقه الى سراديب المخيم... فلبته من الورا امرأة مهزومة العينين، و فى يدها كوب، فاحدودبت اليه... تناول من يدها الكوب و جرعه مدفوقا... فارتمت عليه بلا حراك... تفقدتها و لم أعرفها... الا أنى ارتضيت الجزم النجى: - بانها من دون أى شك - تلبس لهفئة أم شدها الأسى من تحت الكفن... [صفحہ ١٥٦] و لكن الليل لم يمح بعد، عندما اهتزت رهبة السكون بحوافر القوم. دخل عدد و فير منهم سراديب المخيمات، و راحوا يجمعون الحريم و الأطفال سبايا، فى حزم من حزن لا يرفع صوتا و لا نامة من لوعه... بينما راح فوج آخر منهم يقذفون بأرجلهم جثث القتلى... حتى اذا وصلوا الى الحسين، تناولوه من حبرته الحمراء، و بضربة واحدة من سيف، فصلوا رأسه، زرعوه على رأس الرمح!!! انطلقوا - هكذا - برأس الباز... اما الجسم المسجى بحبرة الدم فأضحى مداس النعال!!! بعد لحظات شملت المكان كله فراغات - كأنها من الزمان اغماءات الزمان! [صفحہ ١٦١]

اشاره

أى شىء فى الوجود بلا ظل؟ للنور ظل، و للعتمة ظل، و للظل ظل، و للظل الظل أيضا - ظل، و الحياه بأجمعها تسلسل اظلال تتشعب من ذاتها فى حقيقة المحسوس و غير المحسوس فى الدائرة العظمى التى هى - وحدها - ظل الله المحيط بظله. اما الاظلال كلها فهى حتمية انعكاس الحق النابع من ذاته المرسخة فى ضمير الوجود، حتى لا يمحى ظل الله فى سليقة خلقه. و للظل أثر يتركه فى الصفحة التى ينزل عليها، و له وزن من ثقله، و لون من دباغه، و طعم من مذاقه، و طول، و عرض، و عمق: من حجمه، و مدى ضغطه، و عمر تسلسله فى الاستمرار و التكرار... من هنا نرى أن الانسان فى تكوينه الفيزيولوجى النفسى المركز، هو المرآة المنعكسة عليها كل الاظلال التى مرت على اعمارها فى مدى الأزمنة. لا أقصد من هذا القول ارتيادا لحدود فلسفية حول نشأة الكون و نشأة الانسان - بل يقوم القصد كله فى توجيه الاشارة الى كل الانطباعات التى يتطبع بها تكويننا الجسدى - النفسى فى وجودنا الانسانى، و من أجل هذه الانطباعات ما تحوشه النفس [صفحة ١٦٢] و هى فى عتمة الظل. فالطفل - مثلا - و هو فى رحم أمه - يكون له أن يتقبل نقشا فى تكوينه الطبيعى أو الخلقى الروحى، قد لا يحصل على مثله بعد أن يبصر النور... معنى ذلك: أن دورة الدم فى عروق أمه تحمل هياج أو هدوء انفعالاتها النفسية، و لا بد لها من أن تضخ تلك الاشعاعات المتولدة فى الظل الحميم، الى كل مسام الجسم المتنامى فى احشائها، و هذا هو ظل الظل فى نقشه المعتم. ان الاظلال كثيرة من هذا النوع، و هى لا تحصى، لا بأشكالها، و لا بأنواعها - تنزل على السمع، و تنزل على البصر، و تنقش صفحة النفس نقوشا عميقة، و تنقش العزم و الفكر و الخيال ببطولات و عبقریات من نوعها و لونها، و من عمق مداها. و قد يكون لها عمل معكوس، تقلل كثيرا من قيمة الانسان، و تقتل فيه نفحة الجدوى. ان القسم السابق كله من هذا الكتاب - و عنوانه يحمل معناه: «نقوش الظل» هو الذى تعرفنا - من خلاله - على بعض النقوش التى كان لها بعض الحظ فى العلوق على صفحة النفس عند على الأصغر، منذ ولادته حتى الثالثة و العشرين من عمره. لقد سلسلنا بعضا منها حسبناه - من دون شك - قد حفر فى صفحة نفسه حفره الممتع، على الرغم من الظن - فى بعض الأحيان - أن علاقة بعض منها ضئيلة جدا فى عملية التكوين النفسى المنشود. [صفحة ١٦٣] و فوق ذلك، فان للتكوين النفسى عند مطلق انسان، روافد روافد، من أين لأية عين أن تتمكن من تعيينها و تتبعها فى عمليات التشابك، و التداخل، و الاندماج؟ غير أن الاعتراف بحصولها و غزارة مواردها، مع التقصير فى الاحاطة بمجالاتها، يجعلنا نحترم مداها، لا سيما عند الذين يحتلون مراكز مرموقة فى مجتمعية الانسان. لقد مهدنا بذلك حتى نقول: ان النقوش التى اشتغلت بليغا فى نفسية على الأصغر، هى أبعد من أن تحصى و توصف، و لكن المسوق منها، و ان يكن قليلا، فجدواه فى تبليغ الاشارة الى نفسية متينة نقشتها احداث معينة، كان لها أثر فى عمليات التكيف، و البث، و الاخراج، و انها تبقى - أبدا - نقوشا تلونت بها الصفحة الثمينة التى هى المرآة المنعكسة عليها مدارج الاظلال. [صفحة ١٦٥]

اشارات الامامة

لقد خيم الحزن على آل البيت منذ الزمن الأول - فلنسبر غور شحاته ابتداء من الامام على الأكبر، وصولا الى امامنا على الأصغر، و هو رابع فى خط الامامة، منذ هذا اليوم العاشر من محرم المختوم بحزن كربلاء! لقد صدم الامام على بموت الرسول، و لكن حزنه ذاك، ما كان ليتمرد لا عليه، و لا على آل البيت أجمعين، لو لا دفع ردىء اخر رجهم به اجتماع السقيفة! و لقد تجدد الرجم و تضاعف الحزن مع كل عملية من عمليات الابتزاز، أبعدت فيها الخلافة عن محورها الأصيل: من أبى بكر، الى ابن الخطاب، الى ابن عفان، الى زرع كل أسباب الفتنة و الضيم فى غوطة الشام! اما موت بنت النبى، و زوجة الرجل العماد، و أم السيدين الموصولين بالامامة و صلة الأمة بالرسالة، و وصلة الرسالة برياض الجنان، فانه ألهب الحزن فى المفاصل، و حفره فى الخواطر، و جعل «فدكا» أخت السقيفة... اما الدور الذى وصل - هزيلا - الى الامام، بعد خمس و عشرين حجة من قطيعة، فانه دغم الحزن بالمرارة، و استمر يفعل بالنفس تشريحا

و تمزيقا، حتى أطبقت ساحة [صفحہ ١٦٦] المسجد في الكوفة على الامام و امتصته قتيلا! و انتقل اصراع مع الحزن المستمر الى الامام الثاني، و هو السيد الحسن - و تكشف الأحداث عن نوايا مبيتة و موصولة و صلا دقيقا بمخططات السقيفة، و كلها مشغول بفن من فنون العفاريات، تقضى قضاء مبرما على طالبي رفعة في المجتمع سبل المكارم، و سلمته مقاليد السياسة و التوجيه، و تقبلت منه خطوط الفكر، و خطوط الروح، و كل آيات الله في قرآن كريم. لقد ظن ذلك السفيناني الصغير، ان باحات المجد تسكرت أمام خطواته المخولة بأفكار الشياطين، و أن توحيد الأمة بأشعة الخير، يقطع حبال القبائل، و يفرطها الى واحات الزفت و الكبريت!!! ألا فليفعل شيئا يمنع الخط عن طالبي يحاول تنشيف الأرض من حرارتها!!! و حرارتها هي من القبائل المشروعة فيها من عهد عاد!!! و ابتداء الفعل العظيم يسرى: مع تكوين السقيفة - مع تجريد فذك من نخيلاتها الباسقات - مع زرع معاوية في غوطة الشام، و حصر بردى في أكواب بنى سفيان - مع حشد القبائل و تخبئتها في المخندقات، حتى تتم بها الهجومات المباغثة - مع الميئات المدفونة في الصدور: سما، و قيحا، و صديدا من زئير القروء، يصطاد بها كل طالبي يمشى على الطريق، و هو في غفلة عن القدر المحوك! [صفحہ ١٦٧] مع الوقت راحت تتكشف هذه النوايا المرصودة، بكل ما هو مخطط لها. و كان افتراض الظن يلقي على عامل الوقت تنفيذا ممتازا و حازقا لما هو مرسوم، حتى اذا ما تمر خمسون أو حتى مئة عام، يكون قد انقطع خط الطالبين من بين الأنام، و بقيت ساحة الدنيا لسفيناى أكيد، يجدل من شعر رأسه حبالا يزخر به خصر الأرض، و يملكها: ذهابا، و مجدا، و عبيدا، و اماء!!! و ابتلع ريقه الامام الحسن - و راح يعد الأيام، أيام الدهر في حياة الأمم، و وجد الصبر يطول عمر الاناة، و هو يقرض حبال الثواني الفارغة، حتى يجعلها مليئة بقرعات الحق - و لا بد للحق من أن يخضب الهشيم، و يملأ قشه بحبات السنابل! و لما جاء دور «جعدة» المسلوخة من بنى سفيان، تناول الحسن من يدها جرعة السم، و اختصر أيام الفراغ، حتى يبقى هو - نموذج حق تمشى الأمة على مدارجه اذ تستفيق على همسات الحقائق، و تبنى ذاتها من جديد على نور وحده فاعله، تخضبها الرسالة العظيمة بخلود الحق. و بقي الحزن وحده الملقط الجامع آل البيت - لقد أصبح الآن و جيبا يملأ الصدور بأضلال رهيبة - و لقد تناوله الحسين و مسح به وجهه، بعد أن اكتحل به و اعتصب. انه - فعلا - حزن رهيب، طوقهم به شيطان رهيب! و لكن الحزن الواصل الى الحسين - ساعدني يا مدارج [صفحہ ١٦٨] الذهن حتى أتمكن من تحديد الحزن الذى تكون فى طوبى الحسين - فانه من النوع المجنح، قد لا يكون لنا أن نحسبه حزنا، اذا قارناه بأحزان الناس... انه عند الناس مضيض من أسى، و كوم من لوعات! اما عند الحسين، فانه حزمة واحدة من صمت و تأمل - و انه مدى آخر من ترقب مصقول، يعد ذاته لقفزة مثلى يملك بها روعة المجهول... و للمجهول عنده حدود من مجد تربط الدهر بعمر الانسان، و تعتبر الانسان تحقيقا رخيا، فى اللحظة العتية التى يمسح فيها صدره بومضة واحدة من بريق العنفوان. لم يحترم الحسين أنامل الحزن تمسح دمع العين حتى تعود العين الى سفك مجد... ان الدمع يغسل العين - فقط - حتى ترى، لا من أجل أن تعمى... و تغرق فى النزف... و تخنع و سحقا لحزن يشل قوى السمع... و مجادل النفس و أفانين البصر! و قفز الحسين بحزنه المطيب فوق فوهة المجهول، و لقم الشهادة كلها بعنفوانه المطلق: - اذا تمسح النفس صدرها بوميض العنفوان، يمح ظل الحزن من مدمع الانسان، و تبرأ من قزمة الشيطان ردهات الجنان. و شاهد الامام الصغير، بعينه الكبيرة، قفزة أبيه فوق لجج [صفحہ ١٦٩] القهر، و رأى ملوك العهر تحت مواطىء النعل، لا يشرب لهم خفق الا خفق حقيق... و رأى ذل الأرض كلها فى دخانه الأغبر، لا تتعاب به الا صدور الأفاعى فى زحف زنيم يتجاوب به زحف زنيم... انه الختل - وحده - يمتص ذل الأرض، و يمرغ الأرض بروغات الجحيم! اما العنفوان فانه الهابط - وحده - فى مجادل الأسلاك، يشتري يقظة الذات من غيبوبة الحق، و يربطها بومضة الصبح، و ينجيها من غرق فى حزن عقيم، تيبس به العين، و ينطفئ فيه القلب، و تتلاشى معه نبضات الضمير! منذ كان صغيرا جدا هذا العلى الأصغر، و أبوه الحسين ينقشه بمثل هذا النقش الأمثل - كان يفهمه أن الامامة التى هى منه و له، هى وفود من علاء، و أن الحزن الذى يتغشى أمامه من حين الى حين، هو عقيم أجرب، و ليس للنفوس الأبية أن تعيره أبها، و أن تعريته من قمصانه هو الأجدى و الأصوب، لأن الخضوع للحزن منقصه من مضاء النفس، و اقرار له بالغلبة، و ان التسلط على أسباب الحزن هو الذى يبريها و يعييه. و ما ضوء الحزن على أبيه و لا شحت عبيه،

بل استحالت نجواؤه الى كآبه غطت الوجه بمياسمها النيلة، و سادت النبرات بهدوء رزين، و بقي هكذا ظل النفس تحت و شمه المبارك، ينسف الحزن من تشعبات الطريق، و يعلم الأمة صلاة الحق حتى يرفعها الى علياء ربها و ينجيها من كفر المارقين. [صفحہ ١٧٠] لقد تحول الحزن في عين الامام الأمين و ثيقه من فن أصيل، من أجل تعزيز رمق الشهادة، من أجل رفع الذات من وهدة الذل، و تسجيلها حرفا من آية نطق بها جده نبى المرسلين. ان اطارات الامامة أمتع من أن ينشفها الحزن من الفرح الآخر الذى هو عز الحياة و جلوة الحق... ان مقر الشياطين هو - أبدا - فى صقر، و ان نقطة واحدة من عنفوان الحق تطمر الشيطان فى جحيمه... [صفحہ ١٧١]

رمق الشهادة

و ابتداءً يتعزز فى العلى الأصغر رمق الشهادة... مع هذا النهار الأول البازغ من تحت أقدام أبالسة الجحيم ابتداءً يتعزز رمق الشهادة التى قدمها حسين كربلاء... لقد شاهدنا - و شاهدت الأجيال - كيف كان يتفجر الجحيم فوق هامات الشهداء... كيف كانت نعال الهمجية تدوس أجسادا جردتها من روح الله المسكوب فيها، و راحت تحز الرؤوس ترقص بها مشكوكه على رؤوس الرماح... كأن الله ما جدل ذاته فيها آيات منورات شعت بالحق و كحلت به مقله الانسان. هؤلاء هم شياطين الجحيم - أو بالتعبير الأصح - وحوش الأرض نزلوا كربلاء و مثلوا بأشلاء القتلى و أضرموا النار فى الخيام و الأخبية، فحجزوا حريم الحسين، و الأطفال، و المرضى، و ساقوهم سبایا كالأنعام فى شوارع الكوفة، لتشرح بهم عين الأمير، حاكم الكوفة، عبيد الله بن زياد. قرت عين الأمير اذ وقعت على كوم من سبایا مغلولات بالبؤس، و الحزن، و تمزيق الصدور، و فى رفقتهم فتى حقير تشد به الى الأرض أثقال المهانات... تأفف الأمير الخطير الشأن من [صفحہ ١٧٢] النظر اليه، و هو المدله برقعة مجده، و انحدر اليه بالسؤال. - من أنت؟ و كان الجواب الصغير كأنه لطخه من تهكم: - على بن الحسين... و اشمأز الأمير من رنة الجواب و انبرى يسأل: - ألم يقتل الله عليا بن الحسين؟! و ارتفع الفتى الوضعي قيراطين فوق راحتي قدميه و قال: - «كان لى أخ يسمى عليا، قتلتموه... سترونه أمامكم يوم القيامة». و لكن الأمير الذى تعرف الى الله عن لسان محمد تطفى برب محمد، و أحال عليه ثقل الجريمة و هو يتبرأ: - لم نقتله نحن، ان الله قتله. و على الفور كان الجواب: - صدقت: «الله يتوفى النفوس حين موتها... و كان لنفس أن تموت الا- باذن الله». و لكن - اعلم أيها الأمير: ان الله لا- يقتل، بل يحيى... و اذا كان الموت باذنه - سبحانه [صفحہ ١٧٣] - فهو استدعاء و اثابة... أو - بالمنطق المجرد - استيفاء النفس الى مصدرها. لم يرض الأمير جواب جرىء مؤمن، بل خبله الجواب الذى لفه بثوب الهمجية و جلببه بجلد الوحش!!! و هكذا أمر الجلاد الواقف على باب، بضرب عنق الفتى الجربان المتجرىء على سيد المكان. نحن الآن فى استحضار نفيس غير خائفين على على الأصغر من حذف عنقه تحت ضربة الجلاد، لأننا نعلم أن عمه الفتى الطاهرة زينب، المهدودة الركن و العين و اللب، أخذته بزنديها، و اشترته بحياتها حتى لا تتم عليه جريمة الغاب... لقد رضخ ابن زياد - لو ترفيه كان فى ما مضى ينبض - فتساخى و عفا. و هكذا نرى أن شيطانا فى نفس ابن زياد قد طمرته فى جحيمه نبرة من عنفوان أمام فتى عمره فى الامامة يوم واحد. و اندثرت قرون عددها أربعة عشر... و لا يزال رمق الشهادة ملتها بوميض النور: يزين اسما بمرجان الجنان... و يرى الثانى من عفه المرجان... و تكرم الأمير بلفته من شهامة، دعمها بتساخيه و عفوه عن الفتى المغلف بحزنه و ذله، و أتاح له نعمه القيام بدفن أبيه و عمه الفضل بن العباس - فلملم الامام المهبط الجناح أشلاء أبيه [صفحہ ١٧٤] المحزوز الرأس من موازاة الكتفين... و أنزله فى حفرة ما وسعها الا شرف الشهادة... و أنزل عمه الفضل فى حفرة كريمة موصولة بأختها، مسقية بعطر الدم و مضمخة بنبل الفداء... بعد ساعة مضنية بالتأمل المسحوق، تقدم البطل شمر بن ذى الجوشن، فسحب الفتى من وهدة صمته، و غل عنقه بحبل أسود: لقد عين ابن الجوشن قائدا لنقل موكب السبایا من قصر الأمير ابن مرجانة فى الكوفة، الى قصر الخليفة ابن معاوية فى رحاب الشام. و على ذات الموسيقى - من ضرب دف و نقر و تر - تم نقل السبایا فى رزم مربوطه بخيطان رخيصة، على ظهور أتن بلا أرسن تضبطها من هزيان... و لكن حمارا ذكيا، يركبه من هو أذكى منه و أفخم، كان يضبط حبل الاتن على الطريق الممتد من الكوفة - عبر واقصة - الى تدمر فغوطة الشام. هنالك أطفال صغار فى القافلة، كانوا

مربوطين بحروج النساء... أما الكبار منهم فكانوا محزومين بزنانير حول خصورهم الى خصور أمهاتهم... اذا حددنا النظر قليلا نرى - مثلا - زنارا محيطا بخصر فاطمة بنت الحسن، زوجة الامام ابن الحسين، و طرفه الآخر حول خصر ابنها محمد الباقر، أظن عمره الآن أربع سنوات... و نرى أيضا بالقرب منهما الامام عليا الأصغر - ولا رجل غيره في حبل الأسارى - يركب أتاناً حقيراً بمحازاة أتان [صفحة ١٧٥] حقير آخر تعتليه عمته زينب... ان الاثنين مغلولان بحبل واحد ممتد من عنق الى عنق لتشديد الدلالة على أنهما أسيران محترمان ترهبهما خطوط القوافل، و تعتز بتقيدهما جيوش يزيد... و وصلت القافلة الى أرض الشام، و مرت في زواريب الأزقة - مرت في وضح النهار، و لم تمر في غلسة الليل، لأن الليل يغمض العيون بعتماته، و يحجز الناس المتفرجين في أسره النوم، فلا يرون ما يريد أن يعرضه عليهم المهرج الراقص بسعادينه، و زمر ديبه، و طبوله، و آلات زمرة... ألم يكن المهرج ذاك يكنى بأبى قيس؟ أحذق قرد في عالم السعادين، و أذكى من رقص في ساحات القروء؟ أليس هو - يزيد - الذى سيطر على البصرة و الكوفة و أخضعهما تحت امره عبيد الله بن زياد، فزمر كربلاء بسياج من رماح، و أسنئه، و أقواس موتورة بآلاف النبال؟ أليس هو الذى شحن الليالى العشر بالرعب، و أطبق على ساحة ليس فيها أكثر من مئة و ثمانين من النسوة و الأطفال، و العجز، و العزل الذين لا حول لهم و لا طول فى إقامة حرب تستدعى حشد قوة من ثلاثين ألفا يصلون و يجولون بالأبطال، و الفرسان، و الخيول، و الرماح، و نصابى قواعد المنجنيق؟ هل كان كل ذلك فيه أكثر من تهريج على الناس، يطن التخويف و الترهيب ان لم يبايعوه و يخضعوا لسلطانهم؟ و يكون هو - فى الوقت ذاته - قد نفذ القتل و التدمير، أمام عيون الملأ، بمحو العاصين الذين لم يخضعوا [صفحة ١٧٦] لسلطانهم؟ لماذا لم يأسر الشائرين و يرمهم فى عتبات السجون؟ اذا كانت نيته صافية من التهريج و بث الذعر فى الأبواب؟ لماذا لم يخطف العاصين - هؤلاء - خطفا بهجوم لا يستغرق منه الآن أكثر من ثلاث دقائق، و يستريح من الرقص و التهريج؟ لماذا لا يقلد الا الفهود و الهررة - و هما من فصيلة واحدة فى القفز و الفتك - فالهررة الشرسة لا تلتهم فريستا الصغيرة الا بعد خمس ساعات من مداعبات فيها كل لذات القهر، و العهر، و التهريج المرير؟! أليسوا هكذا فعلوا بجرجرة السبايا فى الأزقة و فى وضح النهار؟ حتى يرهبوا الناس بلون فتكهم الذئبى - الفهدى - الخنزيرى - الملطخ بشراسه السراحين؟! يا للقسمات الواضحات، رجعوا بها الى طبائع الحيوان، و لم يسموا بها الى مدارج القرآن!!! أخذوها من ظفر فهد و هر، لا من أنامل عطف و بر... و لا من سمو، و لا من ايمان نقى، و لا من رهان جليل لتحقيق عزه الانسان، و حضارة الانسان، و تعزيز الوجد فى ضمير الانسان!!! هكذا دخل القائد المفدى شمر بن ذى الجوشن - بالسبايا - أزقة الشام، راقصا برأس الحسين مشكوكا على رأس رمح - و خلفه رتل من سبايا صامتات، مصونات، مغلولات بذل مسحوب من قفا قرد، و ظفر هر، و عين خفاش!!! وحده - على بن الحسين - قفزت به الأظلال من مدى الى مدى، اذ هبط عن ظهر أتانته الى شوارع الشام... لقد كان ينوء [صفحة ١٧٧] بثقل حزن لا- هوادة فيه، و هو يخط دروب البادية من واقصة حتى شرائح تدمر - و لكنه الآن - و قد تلففتهم عيون الناس فى المدينة - خف الى نفسه، نسى أنه الذليل - الجريح - المدمر، لقد تبدل به عنفوان الذات من متعب، حقير، مهذوم النفس، و مهذوم العافية، الى بطل آخر: يرفع جبينه شعار العز، و يوسع صدره فخار الانتصار... هكذا مشى تحت عيون الناس: يقدم هزيلة مثقلة، و لكنها متينة الثبات - بعين مفتوحة بنعاسها، و لكنها غائمة القرار - بجبين مفسوح و مرفوع، و لكنه مهزوم المدى - بيد مكبله الى خصره، و لكنها مهزوزة الريح بأصابعه الملتاعة. و الناس؟ ما القصد من تكديسهم فى الشوارع؟ أليس ليلقوا على هذا الفتى نظرة التحقير؟! و لكنه - كما يبدو من ظاهر عريه - لا يستأثر الا بلفته التقدير... فلماذا - اذا - كل هذا الحشد تنتخم بهم الأزقة؟ و ما هى الغايات من مثل هذا التذليل و التشهير؟! لقد راحت عيون الناس تتبادل السؤال بتطارحات منوعة، فيها كثير من ذكاء، و فيها كثير من عياء... و لكن السؤال الصريح كان يتخبأ تحت اللسان، من دون أن يجروا فيفصح عنه أى بيان!!! ان التوريات - وحدها - كانت تتلاعب بالاشارة: [صفحة ١٧٨] هذا شيخ مسن - بكى لما وصل اليه الفتى المخبول - فاندس قربه و راح يسأل: - أنا لا أراك تستحق الذل... ألا تكرمت على بكلمة تخفف عنى الضيم؟! وغمره على بنظرة شفافة و أجاب: - هل يكفيك أن أقول لك: أنا على بن الحسين بن على، و ابن فاطمة بنت الرسول؟! ما كاد الشيخ يسمع التعريف حتى وجه رأسه نحو الفتى الأسمر، و راح يحذق به...

بعد قليل هبط الى الأرض كأن اغماءه خطفته عن عصاه... و لما أراد الفتى أن يتداركه الى صدره، فاجأه من الوراء رفس الحراس لمتابعة المسير. و توبع المسير مع لجاجة الزحف... و تم الوصول الى باحات القصر - فانكفأ الناس مفسحين للحراس بتمرير السبايا من تحت العتبات المذهبات، فالأمير يزيد و هو الآن الخليفة المهاب - بانتظار وصول فتى، اسمه على الأصغر، ليتعرف عليه، و يستكشف سر نجاته من وطء النعال! [صفحة ١٧٩] أما الفتى المحمول على مثل هذه المحفات من التكريم و التشهير، فان عين الأمير ستقع عليه للمرة الأولى. لقد كان يعرف أن أباه الحسين خطير جدا، فهو من دوحه طالبيه تجسم فيها الخطر على سفيانيته منذ عهد الجدود... لقد أخبره أبوه معاوية - و عند معاوية الخبر اليقين - أن لا- وصول لسفياني الى شرفه مجد، الا- بسحق شامل لكل جذر من جذور الطالبيين... فليكن منهم - كطالبيين - من ربط الجزيرة كلها بملاحف الدين، و لكنهم - كسفيانيين - على مهل، على مهل رشيق، سيزعزون الخط بتمويه العسل، و ستبقى لهم - فى نهاية الشوط - آيات الرحيق... لهذا كان للحسين أن يموت الميتة البطيئة - كما كان لأخيه الحسن أن يموت الميتة البطيئة - كما كان لأبيهما أن تلفه الميتة البطيئة - كما سيكون لهذا الفتى المشهر به، أن ينزح بطيئا بطيئا الى يثره، تجذبه اليه ميتة بطيئة!!! و أطل على الدار الفسيحة المطعمه بالعاج و الياقوت الفتى الذى اسمه على الأصغر، و بالقرب منه عمته التى اسمها زينب. و امتلأت أركان المكان بالسبايا المقرحات الرافلات بالخز و الدمقس و أوشحة البرفير، كأنهم جميعهن الهابطات من الجنان العلى، و هن الموشحات بالعفاف السنى، لتقر بهن عين الخليفة فى ساعة مجده! و ما أدركنا ما معنى الخليفة؟ انه هو المغرور من نعيم محمد فى الفهم، و الاستيعاب، و التمثيل، حتى يكون من [صفحة ١٨٠] بعده فى حقيقة الاستشراف و الاستمرار، من أجل امداد الرسالة بمقوماتها التوحيدية الجامعة، و السير بها من مداها الى مداها الأصيل. على الخليفة أن يكون فرعا من مغزل المخلوف: خيطا و غزلا- و تعيينا... فما أجل هذا اليزيد! حظى بالتعيين الرزين، قبل أن يترك الأرض ولى المسلمين. وقف العلى الأصغر تحت شمله اليزيد الأكبر، و تناوله - دفعه واحدة - من فوديه حتى أخصيه. ثم قتل القاعة كلها بعزله عينيه، من شهقة السقف حتى الحضيض المنضد - ثم أدار عنقه المغلوله بمرسه سوداء، و راح يدور بها من وجه الى وجه، كأنه يتفحص نفس كل عزيزة من أهله: ما هو لون مشاعرها فى هذا المدرج الأنيق؟ لقد لف الصمت الفصيح كل القاعة بهذا الشكل المبدع - لم يتململ منه - فى النتيجة - الا- يزيد... لقد أحس أنه أمام رجل بعيد جدا فى لمحاه الأخاذ، حتى أنه رأى نفسه - تحت هاتين العينين - كأنه المعرى من كل ما يستره عن العيان. لقد أدرك أنه - من لمحاه واحدة - فهم كل ما دار و يدور فى خلده، و أن كل ما سيقوله له، قد أصبح فى حقيقة فهمه و علمه، و أن كل احترام سيقابله به، انما قد فرضه عليه ثقل آخر فطنت به المعية فى شخصيته، و توازن فى مواهبه... و سريعا ما رأى نفسه محتاجا [صفحة ١٨١] للتخلص من وقوفه عريانا أمام من قصد - هو - أن يعريه من عزته المنقوشة فى بطانة نفسه، و الموصولة بجده الكبير، نبى الأمة، و نبى المسلمين. و هكذا استدعى رئيس الديوان، و قاله له: - فكوا أغلال القوم - و خذوا الأسيرات الى غرف القصر - و امسحوا حزنهن بما يلزم من التكريم - و ألبسوهن ثياب الأميرات. أما أنت أيها الامام، فاقترح على ما تريد - الا- أن تطلب ارجاع رأس أيبك اليك... أصبحت أعرف أنك تحزر السبب، لهذا و فر على و عليك خوضا بهذا المجال... ما عدا ذلك فانك المكرم فى قصرى حتى ترتاح من أتعاب رشقناك بها... انك تقدر - ساعة تريد - أن تعود الى يثر بقيادة النعمان بن البشير... و لكنى أوصيك بأن لا تتجاوز حدودك فى يثر، فأنت محترم فى مجالك، و لا تتعد المجال... فهل لك ما تقوله لى قبل أن تترك المكان؟ لقد فهم الامام كل ما قصد الأمير عمله، و رأسا أجاب: - سريعا ما فهمتنى أيها الأمير، و أنا بدورى لم تخف عنى نواياك، لذلك لى عليك رجاء: [صفحة ١٨٢] لا تشط فى سياسة الأمة - انها أمة جدى، و انها أمة أجدادك بلا مراء... لقد وفرها سالمه عمى الحسن، و حقن دمها من الهدر، أما أبى، فأنت أخطأت كثيرا باهدار دمه، لا لشيء الا أنه لم يرد أن يهدر عزة الأمة... فيا ليتك لم تقصر من أناتك، و ما عجلت على امتلاك الدنيا التى لن تصبر طويلا حتى تفر من بين يديك... ما عدا ذلك، فاقبل نصيحتى، و لا تؤذ الرعية لعل جدى يغفر لك... بعد ثلاثة أيام كانت قافلة السبايا تستعيد رمقها نحو مدينة يثر. [

النعمان بن بشير

و النعمان بن بشير؟ أليس هو اياه، ذلك الذى لف أصابع نائلة بقميص زوجها المقتول الخليفة عثمان بن عفان؟ لقد هاجت الثورة على الرجل، فاقترحوا داره بالسيوف و الخناجر - صدت المرأة عن صدره بكفها ضربة السيف، فانبرت أصابعها و أردت الطعنة الرجل قتيلًا. و اتجه النعمان نحو معاوية فى الشام، بالقميص المضرج بالدم، و فيه ثلاث أصابع بلون العندم، فشهد زورا: أن القاتل هو على بن أبى طالب... و لبس معاوية القميص، و علق أصابع نائلة فوق عتبات القصر، ليبقى له دائما ذلك الاستثثار بطلب الدية و استيفاء الثأر. يا للمفارقات الغريبة - فالرجل ذاته الذى خلد قميص عثمان، و جعله مأربا من مأرب بنى سفيان، هو المكلف الآن بارجاع ابن الحسين - الى يثرب - فى قميص السلامة. ألف النعمان بن بشير قافلة ارجاع الامام على بن الحسين من الشام الى يثرب: من عدة هودج للحريم و الأطفال، و من عدة جمال و بغال لحمل المؤن و اللوازم التى يطلبها طول الطريق، و من [صفحة ١٨٤] عدة خيول مضمرة لقائد القافلة و للامام العائد مكرما الى مسقط رأسه، و لعدد من الحراس المولجين بضبط المسير، مع نصف الليل تم الرحيل المنظم - ستكون دائرة واقصة فى الانتظار. قسم من الحراس أمام القافلة، على رأسهم دليل، يليهم - رأسا - رتل الهودج، ثم حصانان فخمان، يعتلى واحدا منهما الامام على، و يعتلى الآخر على اليسار القائد النعمان - ثم يأتى دور البغال و الجمال، ثم قسم من الحراس فى ذيل القافلة. لقد كان الترتيب رسميا - و لا غرو - فالخليفة يزيد بن معاوية هو الأمر باعداد القافلة، و هى التى تسير الآن فى حقيقتها من صحة التمثيل. اما الحديث الذى كان يدور بين الرجلين البارزين - وحدهما - على طول الطريق، فانه كان كثير الاقتضاب، حسبما تفرضه اللياقة و الكياسة، أو بنسبة ما تمليه قواعد السلوك و بوادر التهذيب. فمن جهة، ليس بين الشخصيتين تعارف سابق، و من جهة ثانية - ليس الظرف الا-قاسيا جدا لا يسمح بتناول حديث مفتوح: فوضع الامام مأسوى، و الحزن - بعد حصول النكبة، و عمرها بضعة أيام - هو الذى يفرض الاحترام، و بالتالى، الاعتصام بصمت و تأمل. بين الفينة و الفينة، كان يشعر ابن بشير بان رفيقه فى الطريق، يوجه اليه نظرات مسترقة، كأنها فاحصة - ثم لا-يعتم أن يخفيها ببعض التمويه. بعد الوصول الى «واقصة»، و هو المفرق [صفحة ١٨٥] المشهور المتشعب شمالا نحو الكوفة و البصرة، و جنوبا نحو مدن الحجاز، توقفت القافلة على طلب من الامام، للتوجه نحو الكوفة، للقيام بزيارة ضريح أبيه و ضريح عمه الفضل بن العباس، فلبى النعمان طلبه، و شكره الامام و هو يركز عليه عينا كأنها تحاول الاستفحاص عن دخيلة فيه يريد استكشافها. و عادت القافلة من الكوفة الى واقصة لاستئناف المسير، اما النعمان فانه صمم على أن يسحب رفيقه من دائرة الصمت - و لما سنحت الفرصة توجه اليه بالكلام: - فى صمتك كثير من التعبير عن حزن أنت به أولى، ألا يمكننا أن نتحدث قليلا يا سيدى فنبرى طول الطريق بما قد يخفف من ثقل معاناتك؟ فتبسم الامام بسمه مهذبة القصد و التوجيه و استدار نحوه مجيبا: - لقد لمحت يا سيدى انك تريد الاحتكاك بى على مرتين كنت أنا فيهما أحاول أن أنفتح عليك. أما و قد سبقتنى بالمبادرة، فلا بأس من أن نتبادل معا أطراف الحديث. لقد طرح الخليفة اسمك على عندما و عدنى باخلاء السبيل. هكذا عرفت أن النعمان بن بشير هو الذى يقود قافلة ارجاعى [صفحة ١٨٦] الى يثرب، و من هنا أقول: لك نقش فى بالى طول ظله سبعة و عشرون عاما... و لكن عيني لم تقع عليك الا مع بداية هذه الرحلة التى تردنى أنت فيها - هكذا - حزينا - الى مسقط رأسى. سمعت بك و أنا فى الكوفة - كان عمى أربع سنين - و أنا الآن فى الرابعة و العشرين. اما الحديث عنك فكان قبل أن أولد بثلاث سنين، أى سنة مقتل الخليفة عثمان بن عفان. و هكذا فان مقتل على فبعد هذا التاريخ من مقتل عثمان بثلاثة أعوام، على يد مجرم تعرفه أنت - و عرفته أنا باسم ابن ملجم المرادى. أترانى بهذا القول يا سيدى أضبط أحداث التاريخ؟ أخذ النعمان الحديث المفتوح بهذا الشكل و لم يجب عليه الا بعد تفكير و استغراق: النعمان: يبدو انك تضبط نقله الأحداث، و لكنى لم ألمح بعد المناسبة التى نزل اسمى فيها على بالك و أنت بعمر الأربع سنين. الامام: أن ذلك واضح يا سيدى - انها مناسبة مقتل جدى الامام على، على يد المرادى، و كان عمى فى تلك الساعة أربع سنين! [صفحة ١٨٧] النعمان: و ما دخل النعمان بن بشير بمقتل الامام على؟ الامام: ألا ترى لمقتل ابن

عفان صله بمقتل ابن أبي طالب؟ النعمان: أهكذا ترى؟ الامام: أنا أرى أن ما يحصل عن طريق المداورة هو أبلغ من الذي يحصل عن طريق المباشرة! النعمان: ربما يا سيدى، ولكنى لم أفهم بعد ما تقصد. الامام: أنا لا أقصد الا شيئاً واحداً يا سيدى: هو فتح حديث نشبع منه نهم الطريق، ونقطع به المسافات الطويلة التى - لو كان لنا أن قطعناها بروية وامعان - لكان نجا من بتره العمر عثمان بن عفان - و لكانت الأمة قد تربعت طويلا فى حضان امام متين الرسوخ فى كرسى البلاغة. قال الامام ذلك و سكت على بعض التأمل - اما ابن بشير فراح يمزج ما سمع، و هو غارق فى مناجاة الذات - قال فى سره: - ان الرجل عميق القرار، يلتهمك قبل أن [صفحه ١٨٨] تمد اليه اصبعك. لا بد انه من الصنف الفريد، يشملك بمهابته اذ يلفك بهدوء عينيه... لقد بدا ذلك من تصرف الخليفة ازاءه: لقد استدعاه مكبلا- من الكوفة، ليلعب به كما تلعب الهرة بالفأرة، و اذا بالفأرة هى التى تعلم الهرة تنعيم الأظافر. يا للنفس كم هى تزخر بالطاقات الجلييلة تفيض بها العين فيضة سحر!!! فى هذه اللحظة بالذات، توقفت القافلة و سمع صوت الدليل: - نحن فى محطة «مياه العرب» فاستعدوا للنزول. بعد يوم من راحة - و كانت قد ملئت القرب من الماء المجمع الى المنطقة من الجبل القريب و اسمه «جبل لعلع» - انتظم المسير نحو «الحاجر» و جبل «لعلع»... قبل الوصول الى «التنعيم»، و هى آخر محطة رئيسية من محطات الصحراء، كان قد تم الحديث المعلق بين الرجلين مستكملا مواعينه. وهكذا كان لابن البشير أن جدد السؤال: النعمان: لا أزال متشوقا لاكمال حديث فتحته بالأمس و أبقيته ملفوفا بالغموض. لقد قلت انك تعرفنى منذ سبعة و عشرين عاما - فهل [صفحه ١٨٩] تفسر لى ذلك؟ الامام: ألم تحمل منذ سبعة و عشرين عاما قميص عثمان بن عفان من يثرب الى الشام! لا أظنك الا ذاكرة. و انفتل ابن البشير نحو محدثه كأنه رجع من غيبة تقدر بمئة عام و سريعا ما ملك روعه و أجاب: النعمان: صحيح... لقد نقلت خبرا ملفوفا... بقميص... انها نعوة... و لكن... أى ذنب فى نقل نعوة ملفوفة بقميص؟ الامام: ليس القميص لنقل الخبر، اما قميص القتيل فمعناه: لف عزمك بقميص القتيل و لا تنس... فالتأثر هو المطلوب فى بث الخبر... أتريدنى أربط ذلك بما جد من الأحداث حتى مقتل الامام على بن أبي طالب؟ النعمان: و أى دخل لمقتل الامام بنقل قميص القتيل الى الشام؟ النعمان: هنا الموضوع كله يا أيها السيد الباقي فى السلك الرسمى من ديوان ابن أبي سفيان... أنا لا أقصد الانتقاص من عافيتك فى ظل بنى حرب... و لكم تمنيت - بعد أن تملت من [صفحه ١٩٠] معرفة الأوضاع - لو أن لمعة واحدة من لمع نشاطك الذكى، تمكنت من توجيهها - وقتذاك - لاناثة الشعب المعتم فى نفسية الناس المتهلين بوتائر الضغائن و أخذ الثارات... لو درست أنت - فى تلك اللحظة التاعسة - أسباب مقتل ابن عفان، لوجدت أن ابن عفان هو الجانى الوحيد على ابن عفان، لضعف فى البصيرة، و انشلال فى النظر، و لسوء جسيم جسيم كائن فى النفس من طوية جاهلية حقيرة الحقد، ما بنت مرة واحدة انسانا، و لا نقلته الى صف البشر. كيف رأيت - يا ضامن ايصالى الآن الى يثرب أن قاتل عثمان هو ابن أبي طالب؟ و ابن أبي طالب هو الأول فى الصف المرزوم تحت عين نبيك، و نبى، و نبى المسلمين... كيف رأيت أن ابن أبي طالب يقتل الانسان و هو يحيى الانسان؟ و كيف لم يمكنك أن ترى أن العدل، و التقى، و طهر النفس، هى كلها فى بنية الامام، و انه اشتقاق شفيف من نبى عفيف، سحب الجزيرة كلها من بطون القبائل، و نجاها من الخبل، و قال لها: كونى من معدن رجل يكملنى، اسمه على، و سمته على، و نهجه على، و لا تنزلقى الى غيب [صفحه ١٩١] ماض لم يكن فيه غير الحقد، و غير أخذ الثأر، و غير الانفراط السخيف! قال الامام هذا القول، و التفت صوب رفيقه، فرآه على ظهر حصانه مصغيا و هو منكس الرأس، فسكت قليلا ثم توجه اليه بصوت آخر، فيه كثير من انكسار النفس ممزوجا بعطف سليم، و ألم مجروح، و عتب دامع: - لماذا لم تصدقنى فى ذلك الحين؟ أوكد لك - و لو لم أكن بعد قد ولدت - أنى تتبعت خطاك. و لكنك كنت سريع العدو فى قفزك نحو الشام... و لكنى ما يئست، بل بقيت أمشى و راءك بخطواتى الهزيلة، و أنا أصرخ فيك: أقصف القميص من يدك، ان فيه خنجرا مسموما، يفرط الجماعة، و يمتص منها الصواب!!! بلغ الخبر وحده - اذا أردت - من دون تحريك الضغينة، و اللجاجة بأخذ الثأر... ان فى ايصال القميص الى معاوية - اذ فعلت - هذين المعنيين، و هما من ملتسماته لاحتواء الأرض - و امتلاكها فى عبه، ذهابا و جاها و سلطانا... بينما الذهب هو ملك الأمة كلها فى رفاهية الانسان الذى يبينها بميزان الحق - و الجاه هو مطرفها المغزول بالوعى، و الفهم،

والادراك، ولا يجوز اذا [صفحة ١٩٢] تعريتها منه - اما السلطان فهو العادل، التقى، النقى، المغطى الأمة بحبرات السماء... و من الحيف و الاجرام أن لا تلقى على مثل هذا الأنيق سطوة السلطان. و التفت الامام صوب رفيقه، فوجده فى ذات الغرق و ذات التركيز، فشدد عليه لهجة الطلب: - بدلا من أن توصل الى معاوية قميصا مسحورا بتهييج الفتنة، جلس من قناته - اذا عقلت - و قل له الكلام الجريء اللامع، و أبعد عن مركب العصيان، و أربطه باطاعة السلطان، و لا تخف عنه حقيقة القول: ان ولينا العظيم - و هو محمد - طبخ لنا جوهر السلطان، و فسر لنا، بالبيان و العيان، لماذا و كيف ألقى على و شاح السلطان. اذا كان معاوية لم يرد أن يفهم، فلماذا أنت لا- تحاول أن تجعله يفهم؟ و سكت الامام، كأنه يريد أن يحصل من رفيقه على جواب - و لكن الصمت كان غلاف الليل... و كأن الامام ما كانت له قابلية الصمت، و بصوت أخف قوة و مراسا، و فيه شيء من بحة، استأنف البث: - هل تدرى يا سيد الأمس، أنى بقيت [صفحة ١٩٣] أتبعك فى ذلك الليل - و أنا طفل هزيل القدمين - حتى وصلت الى المفرق الكبير المعروف «بواقصة؟» و لما وقفت أتبين أين صرت؟ رأيتك - مع شروق الشمس - تضرب قفاك بأزقة الشام، فقلت: هل سمع حامل القميص الستغاثاتى؟ أم انه ضربنى بنعله و مر؟ و لما بلغت أربعاً من عمرى، و كان جدى قد خر صريعا تحت ضربة خنجر مسموم، بكيت و أنا أقول: انه الخنجر الملفوف بقميص عثمان! ليت النعمان بن بشير لم يحمل - أبدا - قميص عثمان. و انخطف صوت الامام - و لكن نشيجا سمعه مع خفقة الليل، جعله يفتل صوب النعمان، فرآه يمد اليه باعه و يقول: - أنت يا سيدى بهى جدا أترانى هكذا أغرقتك فى الحزن؟ و لكن حزنك بهى أيضا، أصابنى منه رشاش عطر... و أسكته الامام بنبرة جديدة: - دع الحزن يكمل مداه يا صاحبى - انه الآن عنصر من كيمياء روحى. سأحوله - يوما بعد يوم - الى نوع من بلسم نداوى به - معا - [صفحة ١٩٤] جراح الأمة التى هى، بالنتيجة، حزننا المفتوح!!! اما الآن، فما أحوجنى أعرض عليك - بسرعة - كم جرح الأمة نزيز السم من قميص عثمان!!! انه كشف أليم زجك حرفا يابسا فيه نهج الخليفة عمر بن الخطاب! ليت لم يمرغ به ضلعا من ضلوعه فى اجتماع السقيفة!!! اما النتائج، فتصور أنت مبلغ ضغطها فى جسم الأمة الطرية العود: أول نقرة من نقرات الخطأ هى ثورة صغيرة حذفت ابن عفان... اما النقرة الثانية فكانت من نوع الشرارة الملفوفة فى قميص عثمان، تذرع بها معاوية المزروع فى غوطة الشام، و راح يخض بها جروح الجماعات الخارجة حديثا من عتمة القبلات... خذ يوم الجمل، و تذوق معى طعم المضيق... خذ معارك النهروان و استشرى معى فلسفات الجهل و مبتكرات العى... خذ كذلك معارك صفين، و متع عينك بشعاعين مقصوفين من بهجة الشمس... يا للقرآن نمزقه بأيدينا و نحن نعدده بالآيات!!! خذ كل الامام على - وحدة و تفصيلا - و امسحه من رضوان لنبى - فماذا يبقى لنا غير الكفران، و العصيان؟ و غير قرآن نكذب عليه؟ و غير أمة نبليها بذل قديم، [صفحة ١٩٥] و نهدرها فى مكبات الضيم!!! لقد حاول الحسن أن يرتق الفتق، و يجمع الناس من شتات الفرقة فكانت له دقة العنق - و حاول الحسين أن يرفض الذل، و يمسحنا بدفق العنفوان، فكان له بالمرصاد قميص عثمان لا يزال يلبسه - بالارث - يزيد بن أبى سفيان!!! يا للواقع الذى فجر الحزن علينا شآبيب شآبيب!!! و يا لنا - بمفاتيح الصبر - نبرى حروف الضيم و نفتلها الى بلسم... ليس من أجلنا نحن فى حقارتنا الهزيلة، بل من أجل الأمة التى صاغها محمد، من حزنه المطلق، لمجده المطلق... لم يكمل الامام نرف نفسه - عندما سمع عاليا صوت الدليل: - وصلت القافلة بخير - تركنا التنعيم و نحن الآن فى يثرب... و التفت الامام - و كان الصبح قد شف - فرأى صفوف الأهل فى يثرب بالانتظار الدامع - الصامت - الحزين... و وجد النعمان [صفحة ١٩٦] بن بشير واقفا أمامه، مادا ذراعيه لاحتوائه ينزل عن ظهر حصانه... و اعتنقه النعمان و هو دامع صامت، من دون أن تخفق به أية كلمة. [صفحة ١٩٧]

من يثرب الى يثرب

لم تكن كثيرة تلك الدروب التى مشاها على بن الحسين. لقد كانت مصحورة بين يثرب، و الكوفة، و مكة، و مدينة الشام، و لكنه لم يترك يثرب و لا مرة الا و عاد اليها مثقلا بجنى عجيب غريب جمعه باقات باقات، و خزنه فى زوايا بيته... ثم بنى قصورا ذات قباب، ما

بنى مثلها الا- أثرياء قلائل، شحت بهم دروب الانسان، و اغتنت بهم مجتمعات الانسان. لقد رافقناه يمشى فوق الدروب، و لكننا لم نلاحظ مليا كيف كان ينقشها بخطاه، و كيف كانت - هي - تمده بعصارات تنز بها من تحت راحتي قدميه، فيمتصها الى جيوب نفسه، و يخمرها في وعاءات روحه، و يخزنها في خلاياه الوسيعة ثم يسكبها في ساعات الشح، يروى بها دروب العطاش التي يقهلها زفت، و كبريت، و حرمان، و حزن صامت، و جهل غارق في نسيان الذات. لقد رافقناه - منذ لحظات الولادة - يستقبل مع الصبح كوكب الزهرة، بأم تركته يتيما حزينا، و غابت في لجة الموت! لقد ظننا - لحظة تلك - ان تعويضا حنونا - باركته به جاريه رؤوم أطافوها باسم غزاة، كان يكفيه، و لكن موت الأم شاهزنان كان قد طوق [صفحة ١٩٨] البيت كله، و بمن فيه، بحزن صبيغ السقف و الأرض و الجدران و طال الطفل - من حيث أحد لم يدر - و انسكب في عينيه، و طويته نفسه. حتى انه كان يمتصه من الثدي الذي كان يرضعه و يحنو عليه... و لقد رافقناه من يثرب - و عمره سنتان - الى الكوفة للتمتع بمعرفة جده الامام على، و للتروض بحنانه، و كنا نعجب - وقتذاك - كيف كان للطفل انجذاب قوى الى حضن جده، من دون أن ندرك أن شبيه الشكل منجذب اليه، فالحزن الذي كان يفيض من نفس الامام في دوحه عينيه، كان كافيا لتعجيل انجذاب الحفيد المبنى - بالحزن البكر - الى ما بين يدي جده الرائع... و تم عشق متبادل بين الجد و الحفيد - أضحى سببه الآن بهي الظهور - أغرق العلى الصغير بحزن غائر الحدود، عندما شاهد جده محمولا على الأكف، و قد غدر به ذلك الجلف المرادى... و لم يفتنا في ذلك الحين أن نطرح السؤال على الذات: كيف يمكن طفلا، لم يتجاوز الأربع سنين، أن يتناول مثل هذا النوع من الحزن المركب؟ فالجريمة التي حذفت ركن البيت و ركن الرسالة، انما هي تهديد مخيف، يشمل الواحد منهم تلو الآخر، لأن الخط الأموى يقصد استئصال كل طالبى تجهزه الرسالة لاستلام القيادة. لقد أصبح مثل هذا الهاجس المرير محفورا فى البال، و أصبح التصرف الحاصل على الأرض يشبه واقعا مريرا. ان تجريد الطفل على من هذا الحدس غير مصيب، فالامامة زرع فى نفسه، تعهدته [صفحة ١٩٩] الرضاعة، و تعهدته العناية الخاصة، و كل لفتات العيون، و ان الامامة ذاتها هي التي تنفذ فعلها فيه، من حيث سيأخذه، ذات التحسب و ذات الوجيف، بواسطة حسه الضمنى، و عقله الباطنى، و هما قوتان منقوشتان فى سليقة الانسان. بهذا الحس الضمنى و العقل الباطنى المجردين من فعل الارادة، تم للعلى الصغير التقاء بعمه الامام الحسن، بعد فراغ مقعد الامامة من الولي الأول - لقد هفا اليه بكليته، لأن الامامة انتقلت اليه، و هو الآن فى المركز المهيأ للدفاع عن الذات، فى سبيل تقرير المصير. و انفتل الحزن فى عين الامام الصغير الى نوع من فرح ولدته الطمأنينة فى البال... و لكن سير الأحداث الى مثل ما انتهت اليه - مما جعل الامام الحسن يخسر المعركة الأساسية، و يخسر قيادة الأمة و لو الى حين موعود به، و مهدد بأكثر من كذب و احتيال - أعاد الحزن ذاته الى نفس على الصغير، و دغمه دغما مريرا بحزنه الأصلى الراسخ فيه. و عادت القافلة من الكوفة الى يثرب، تحمل آل البيت ملفوفين بهواجس الصمت و الترقب. اما الامام الصغير، فان اطار الحزن كان جلبابه الأوحده، يحاول أن يفتت من حروفه و لا يقدر - انه قدره الكبير الحامله الآن الى يثرب. [صفحة ٢٠٠] و كرت الأيام الشاحبة، حامله معها هموما تكسده الهواجس، من دون أن تلونها بتعلة - فمعاوية المتربع فى الشام فوق كرسى من ذهب، مهد لانتقال العرش الى ابنه يزيد - اما الأمة كلها فأصبحت زمرا زمرا من قبلات تنام من أحضان البطون، و ترقصها هزات القروود. كان يشغل بال معاوية أن يموت قبل الحسن فاذا حصل ذلك - حسب اتفاقية الصلح - فالخلافة تعود الى الامام، و يخسر يزيد ارث أبيه... لهذا أسرع معاوية الى النفاق الذكى، و قضى على الحسن ببلعة عسل، و حول الخلافة كلها الى يزيده الأمثل، ليموت - هو - على مهل، مرتاحا من أى شرط يقلل من روعه الكرسي، و لمعة الذهب. أى شىء أرهب من دخول لص حرم بيتك، فى وضح النهار، فيحملك على مجالسته و الترحيب به، ثم لا تدري كيف أنامك فى فراشك، و خطف أنفاسك، و سرق مواعين بيتك، ثم قهقهه و رحل... هذا هو كل ما حصل فى بيت الحسن: لقد فتحت الباب لمعاوية جعدة بنت الأشعث قريبته من بنى حرب، فدخل و ناولها كوبا من عسل، سقته زوجها الحسن، فنام و لم يقم من غفوته! [صفحة ٢٠١] و ارتاع الامام الحسين، و اشتعلت الحرائق فى روحه و دمه، و فتش الأرض كلها من حواليه، لعله يجد حساما أبيا - يضرب به باطل الذل و التعدى - لا- يقصف... فوجد الأرض كلها أذل من وتد... و أن النفوس كلها قد ذلت تحت أقدام

العبيد... فمادت الأرض تحت قدميه، و اشرأبت به علياء أخرى، ضربت رأسه في السقوف العتية، فتعلق بها، و راح يشحذ سيفاً سله من بين ضلوعه، سيف المجد الذي سيشتري الأمة المذللة كلها من براثن الخفافيش. و انسل هارباً من تحت عيني رجل سفياني اسمه الوليد بن عتبة - حاكم مدينة يثرب - كان يحاول أن يضمن له سلامة العنق، بمبايعة رجل لخلافه نبي المسلمين، اسمه الأول و الثاني يزيد بن معاوية، و اسمه الثالث سفياني... يا للمسافات الرخيصة، شطبت اسم الحسين من مدينة يثرب، مدينة النازحين الخالدين و سجلته في محارم الكعبة، حيث سيعقد مبايعة ربيعة القناطر، لخليفه رأسه في سماك العز، اما اسمه الحي الأبى القيوم فهو العنقوان. أما علي بن الحسين، فانه اندس تحت ابط أبيه، و ذاب في اريحه ظله، و سافر معه الى كل الأفياء السخية، بصمت ما عرف أبلغ منه خشوع المتعبدين. و تم شحذ الحسام على التصميم الرفيع، و انسل الامام [صفحة ٢٠٢] الحسين من تحت كلابه عيني حاكم مكة، ذلك الداهية الآخر، عمرو بن العاص توأم معاوية في الحياكات الملونة النسيج: بالخيطة، و المكوك، و الحبك المقعر... اما القافلة المزنة: بالحريم، و الأطفال، و الموالين الأصفياء المتسلسلين من نعمة الصدق و بحوكة الاءاء، فهي التي اخترقت حدود الرمال، في سفر معين الرحل، و معين القصد، و معين المآل، في كل ظاهر يدل عليها بأنها قافلة يجبو بها الرفض الى حفر الموت المصبوغ بدم الشهادة. و ألقت رحلها القافلة المقدسة في أحضان كربلاء، باطالها المنة و الثمانين المدججين بسلاح ماض الطبات، تنتصر به كل أمة يطالها ذل البغاء، و تعود - به - الى اعتناق الحق، و اعتناق العز، و اعتناق الرجاء. و تمت مسرحية المأساة فوق خشبة الأرض، قامت بها زمر زمر من العفاريت السود: زنايرهم سوداء، و جباهم سوداء، واقفيتهم سوداء من كثرة ما احتكوا بحتات الفحم قبل أن يبيضه الرماد، و نعالهم سوداء مسلوخة من عتمه ضمائرهم السوداء... يا للشياطين تملصت منهم نعمة الحق، و نعمة العقل، و نعمة الصلوات... وحده الناجي من تحت النعال، ذلك المطروح مريضاً مقعداً فوق بلاس أسود - وحده علي بن الحسين - وحده الباقي من بين [صفحة ٢٠٣] الرجال - شاهد التفصيل في واقع التمثيل، و شاهد النعال تعلو و تهبط في صدور الرجال، و شاهد السيوف الملتمة بخفق الدم، كيف يرقصها سفك الدم، و كيف تسكرها حميا الدم، و كيف لا يبريها هدر الدم!!! و شاهد رأس أبيه مشكوكاً برأس الرمح - يتغنى به رأس الرمح - و يرقص به رأس الرمح - و ينتصر به رأس الرمح!!! فهب من مرضه الذي ذاب - و جلس على بلاسه الذي ابيض، و حملق عالياً عالياً فوق السحاب، و امتلاً صدره بضمخ السحاب... فأبوه - الآن - هو العالى فوق السحاب... يا للعنقوان المضمخ، يحقق ذاته من تلقاء ذاته، في اللحظة التي لقمها فيها قطرات دمه. هكذا وعى ابن الحسين حقيقة استحالة أبيه الحسين فأغمض عينيه عن مشاهدة الدم، و راح يرنو الى غد آخر ترى الأمة فيه هزة الرمح المشكوك به رأس الحسين، فترقص بها رماح العز و هي محققة لها مجداً مبني من رفض الذل، و مشتقا من عنقوان امام اسمه الحسين. و حان اختتام المسرحية المأساة باخراج منمنم لمشهدين جانبيين أضيفا على شاشات الستار: واحد منهما مرحت به شرفات القصر - قصر الحاكم عبيدالله بن زياد - باطالاته الوسيعة على ساحات الكوفة - تم فيها عرض أنيق للسبايا المضرجات بدمائهن المستباحة، و في وسط دائرة منهن رجل قصير حنطه [صفحة ٢٠٤] الذل، و ألبسه ثوبا منقوش الخيطان بغبار الموت، و جعله شبيهاً بملوك أقزام - يحركهم على لوحة من خشب لاعبو الشطرنج. لقد تمتع - هكذا - ابن زياد بمراى الانخساف و الانكساف يرفل بهما علي بن الحسين. كاد ابن زياد أن يسحب من وريد الأسير كل نقطة دم بقيت فيه تسرح... و لكن مهابة أنيقة شعت من حجة هذا الدليل، جعلته ينفك عن ورمه، و يلف الفتى الهزيل بحزمة السبايا، و يبعث بهن الى الشام فلا يفوت الخليفة يزيد بن معاوية تنعم بمراى الذل في مشهد جانبي يضحك و لا يبكي، و تقر به عين قبل أن تتغمض على حرير الوسادة. و جاء دور المشهد الثاني - في زوارب الشام - و أمام قصر الخليفة، و تحت عيون أفواج المتفرجين - صحيح أنها ضلوع المهزلة، و لطالما هرج بمثلها «قيس» يزيد، و لكنها الآن مهزلة ترنقت بالعبر. فالامام المهرج به امام الناس في الشوارع، و تحت عين الخليفة في باحة القصر، هو المتسربل الآن بمهابات جليلة البروغ: من جبينه، و عينيه، و صفقات يديه، و حتى من اطلالة قده القصير الناحل المعبر عن طاقات فيه لا تزال في أختامها مستورة، و لكنها تبدو - في ظلها المقهور - هديراً من موج تسكت به أعماق اليم. كل ذلك قد لملته عين الفجيعة من خوابي الفجيعة، فاذا [صفحة ٢٠٥] هو احتكاك بمعادن الذات، فجره الحزن على مكامن

الحزن فى خبايا الذات، واستحال به الى عنفوان يرفض الحزن يكبل النفس بذل و يبعدها عن الفرح الذى هو لها فى بهجة الصدق، و بهجة النور. ان العنفوان الذى فجره الحسين من مكانه الرفيعة، يأبى أن يعرقله الحزن و يسد به الأبواب. لهذا كان يشدد على ابنه الصغير على، أن لا يخضع كثيرا لسلطان الحزن من دون أن يفتته من حروفه الدليّة، و يرفضه رضوخا لذل يكبل به طاقات النفس، و يمنع عنها أشعة النور و أفراح الحياة. فى اللحظة ذاتها التى شاهد فيها رأس أبيه مشكوكا برأس رمح، تذكر أباه كم كان يلح عليه برفض الحزن جرذا يقرض قمصان الفرح و أوشحة المجد. و هو هو - برأسه المحزوز - يحقق الشهادة للعز المنيع، و يرفض ذلا تقوم به جوقه الجرذان. اما الجرذان التى أنهكت قميصه، فهى التى تقر له بالغلبة المثلى، و ترفعه عاليا فوق السحاب، حتى تراه - دائما - أجيال الأمة فى بعثها الصحيح و رؤياها المجيدة. هذا هو بعض مما لملمه من خيوط الملح هذا المهرج به فى الكوفة، و المهرج به فى الشام - لقد عرف العنفوان من دوحه العنفوان، و بدلا من أن يذله الحزن، راح يعززه الحزن، و يوقره الحزن: فهو البطل ابن أبيه، ينوف به الصدق، و ينوف به النبل، و الحق، و الايمان الكبير، و هو لحمه أبيه، و عمه، و جده، و نبيه الرسول فأى شىء من تفاهات التراب يذلل، و يسحقه بالحزن [صفحة ٢٠٦] تحت أطافر الجرذان. بهذا الجبروت الذى تسربل به الامام ابن الحسين، تملك و قار الناس له، لا- لانه فتش عن ثوب يلبسه فيتهيب به، بل لانه انتفض من حزن ذليل، فاذا به - فى قماشه عريه - بيان فى قميص و شمه به النقش الطريف. هكذا انصبت مهابته فى حفيظة ابن زياد، فعفا عنه من حيث لم يرد أن يعرف لماذا عفا... و هكذا انفتل الميزان عند ابن معاوية: من تهريج مقصود، و تشهير ببقية حقيرة من ولد الحسين، الى خشوع ملقح بالوقار، و اذا به ينيله عفوا غنيا، من حيث لم يقدر أن يغرقه تحت موجات الجفاء... لقد رأينا كيف دبر له قافلة مدبجة بخيول عريقة، كان قائدها رجل مرموق فى بطانة العرش، و لا يزال عليه قميص مزخرف من قمصان عثمان... ألا قليل الدهر قبل أن يبلى قميص عثمان! و سار كذلك قائد القافلة - النعمان بن بشير - ناسيا انه حامل قميصا أغرق الأمة كلها ببحر من دم - أوصل العائد الى مدينة يثرب، ثم عاد الى الشام، ناسيا أيضا انه مأخوذ بمهابة رجل يقدر قيمة الحق!!! لو تعقل بالبشير مهابة الحق، لمزق قميصه الموروث، و بقى فى عريه فى يثرب، مع الرجل الذى كساه بقميص الحق. [صفحة ٢٠٧]

و فى يثرب

و التمت كل خطوات الرجل فى يثرب - الخطوات التى مشاها فوق دروب من تراب، و الخطوات التى مشاها فوق دروب من رحاب. انها الآن فى المخزون النفيس، لقد أصبحت جميعها منقوشة فى اللوحة المتينة، يفصل منها أزياء قمصانه، ليلبسها فى كل عرض تتأق به ليلة العيد. بضع خطوات لم يمشها بعد، سينهض اليها لتتميم مشيئة الأقدار، آخذا منها لونا جديدا يصبغ بها نعله فوق الطريق. لم يبرح مدينة يثرب بعد رجوع القافلة اليها من أزفة الشام، الا مرة فى كل سنة للقيام بفريضة الحج، و التبرك بالرمز الموشح به حجر الكعبة. اما زيارة الكوفة - حيث يسجد مليا سجدة الحق، جده الأمل، و أبوه الغافى فوق نصله الرمح - فانه كان ينخطف اليها، فى بعض غفلات السنين، فى عب عتبات نادبات، فيصل الكوفة ليهرق دمه، و كل زفرات روحه، فوق مرقدين لم يبس فوقهما جفن التراب... ثم يعود محمولا على صلوات تنسيه مشقات الطريق، و لا بد من انه سيسكبها أناشيد فى صحائفه المفتوحة فى بيته المعزول فى يثرب. [صفحة ٢٠٨] فى هذا البيت الغافى تحت سقف وضيع، كانت تتم حياكات على نول منيع: سداها كل مدود النفس مما حوشت من ثقل السنين، فى نقش محفور فوق ألواح الطوبى، و على بسطات الظنون، و لحمتها كل ما قامت به الاظلال من و شى مطرز باللون، و العمق، و البث المدقوق على أوتار المشاعر، و المنسول من الخبايا الغائرة فى دوحات الحنين... انها حياكات نول، كل ما فيه مكوك أنيق يلقطه العقل و خفق اللب، و لا يشد به الا الاستعراض الفسيح، ليكون للاستعراض رشاقه الاخراج فى قماشه منسوجة تشهد انها و شاح لمن أخذت من سداه و من لحمته حبكة الوشاح. كيف لنا أن لا- نرافق الامام فى استعراضاته المشبعة بالحنين الممتاز؟ انه وحده النازل فى هذا البيت الباقى له فى يثرب - انه وحده العائد من مجزرة أرادوها لأبيه مقبرة بينما صاغها - أبوه -

ملحمته هي الياذته في شعاع البقاء... من أبيه بدأ الاستقطاب... بدأ من الساعات الأخيرة التي ألف هو - أبوه - ثوانيه الباهرات. منذ أن خر جده الامام صريعا في ساحة المسجد، بدأ أبوه يهزأ بساعات القدر، و يتهمه بخنوع الذات، و أن لا بد من تصميم آخر يقلل من قبول معادلاته... و لما اضطر الامام الحسن لاقتبال الصلح الأبيض مع معاوية بشروط كان لا بد منها، كان الحسين [صفحة ٢٠٩] يضرب سقف البيت برأسه و هو يقول: - تبأ لقدر يمنع عنا السماء بسقف لا يذوب تحت دفعة النور! و لكن اختناق أخيه الحسن غريقا في كوب من عسل، جعله يجبل الأرض بقدر مخبول، و هو يقول: - أية قيمة لك يا أرض - يقعدك العار، و لا ينهضك شوق النار؟ و دثار العار - ان لم تطهره النار - حيف، و ذل، و شنار! لقد ظنوا أن صوت الحسين قرعة ذابت في رمال كربلاء... لا... يقول الامام الناجي من حريق كربلاء: - ان النفس النازلة من صلب حدى في امتصاصه قبس الرسول، هي التي اكتشف الحسين مداها... سيعيشي مع الأجيال صداها... أين أنت يا كربلاء؟ فتتني حزنا مديدا... و أنا لا أستعجلك تجليتي من جديد... فالحزن الذي لم يردني أبى أتمادى فيه، بل أن أعريه من قمصانه السود - أحبه الآن قدرا لى - أتمتع به دما لذيدا، و ذكرا لذيدا... الى أن يكتمل شوطى... و عندئذ أستبدله بكآبة لا- أظنها أخت الحزن، بل هي شفيف منه، يتغلف بها حنين الروح! [صفحة ٢١٠] صدق أبى: ان الحزن هو التفل... اما الكآبة فهي عصارته الباقية باسم الحنين. اذا كان للحزن غزارة يكتب بها قرون الحروف... فيا ما أجل الكآبة من نتاجه! لقد غرق الامام طويلا في مثل هذه المناجيات، و لكنها بقيت حدودا صغيرة أمام ما يريد تلمسه في قعور الذات من تفهم القضايا الكبيرة التي تنسج في النفس نسجها المبدع، و تنتقل بها الى ارادات تصنع المشيئات، و تسجل العناوين في دواوين التصرف بشؤون الانسان البانى أمة الحق في عوالم الأرض، ليكون له ميراث منزله من أحزان الباطل النازح من جحيم الجهل، و الكفر، و معرفة الشيطان. فى كل يوم و فى كل حين، كان يتم له اختمار رائع التأمل، يسبغ عليه لذة فى الروح، يقوم و يسجد بها فى الخلوة الخاشعة، دلالة شكر على استنارة تطلع عليه من خبيثة نقشت فيه، يتم له بها كشوفات ثمينة تضىء نهجا ثمينا. هب من نومه ذات يوم، و فى عينيه اغفاءة تكشفها كآبة قال: - بدأت أعرف بأى ماء غسلت، منذ أن ولدت الى أن عضنى ذل كربلاء - تسلسلى على يا ثوانى العمر، كم نالك فيها من سكب [صفحة ٢١١] خصب، رخت به على عين الحسين... و أغمض عينيه تحت ظل من سكون... و تراءت أمامه امرأة فى قد نحيل - تظللها غمامات وسيعه - يوشحها حزن - و يرشقها نور... طرفته بعينيه و ذابت فوق طيات النعيم... و فتح الامام عينيه الى سماء منيرة، ثم تمتم بالصلاة: - عرفتك يا أم على... يا طالما رأيتك تخطرين بروحك القدوس فى عين أبى المدعوكه بالدم!!! أظنني لم أشعر بك نازلة فى صدر غزاة المتوسع بك حبا حميما؟ يا للاسلام العظيم... لا تحسبى اننى لم ألمح - لقد حفرتك عين أبى فى أعماق روحى حفرها الأبلغ... و لا- تحسبى أن جدى الامام لم يحفرك فى بالى حفره الأروع - كلاهما حفراك بأزمل النور يا ابنة الجوار المفتوح بنور الرسالة... انها الرسالة جدى، و كم انها باهرة خلصتك من ذل الأسر، و ضمتك فارسية - ايرانية من مدارج الملوك، الى عربى طالبي من مدارج بنى قحطان - يا للصلات بين الأمم، تربطها المثل الكريمة و الكبيرة، صدرا الى صدر، و باعا الى باع، فى ظل احترام الانسان للانسان، على بحوحة الحق و بحوحة الايمان... و ها [صفحة ٢١٢] أنا الآن - يا أمى - ابن خيرتين: فارسية و عربية، تشهدان للرسالة بانها مدى الخير الواسع الذى يبشر بان الانسان أخو الانسان... أظنك فهمت ذلك مليا يا أمى قبل أن تخطفك - الى فوق - ولادة الامام. و نزلت الكلمة - الامام - كأنها الهابطة من علياء، تسرح فيها الآن أمة خلف مدارج الجوزاء، و استقرت فى اذنه التي تتجسد فيها محامل الأصوات: - و ما هي الامامة فى مدلولها المطلق؟ أليست و عاء تسكب فيه مهابط البعث فى ايحائه المطلق؟ أليست اطارا تنضبط فيه المناهج فى تحسبها المطلق؟ أليست هي ذاتها الرسالة فى وعيها المطلق؟ ترى البعد بعينها الصغيرة و تلمح مداه فى شأوه المطلق!!! لا لعمري انها حياكة جدى النب بمكوك ربه المطلق. ليس للأمة غير أن تبقى فى حضن ربها المطلق. قصية جدا مراعى جديد فى دستور الحياة، [صفحة ٢١٣] و ترتيب الامامة هو أقدس ما انخط على نول العناية و الصيانة، فى سبيل أمة بناها الحق حتى تدوم ناجية من خيبتها الطويلة... الأمة وحدها هي الخاطر العظيم المالىء بال محمد، و الانسان العظيم هو البانى أمة يخلد بها فكر محمد، و محمد هو وحده الرجل العظيم الزاهى بقيمة الانسان، و لولا نهجه فى التوحيد لانفرطت مجتمعية

الانسان، وخيمت عليها - بالتالى - عجموية الحيوان. و تهلل خاطر الامام بقتينه من معنى الامامة... و سريعا ما قام و انزلق من بوابة الدار... و راح يسجد و يقبل الأرض بركعة و ركعة تحت كل نخلة من نخيلات بستانه البالغه خمس مئة... ألف ركعة كان يركع كل يوم، شكرا لربه و ذكرا لنبية الذى أولاه شرف الامامة... اما أبوه الحسين فكان يوجه لايه كل يوم ركعتين: - ايه يا أبى العظيم، فأنا ما وعيت ذاتى الا- تحت ناظريك. لقد سبكنى سبكا بالامامة، و حليتنى لها بشوقك المفعم، حتى انى أخذتها رضاعا من صدر أمى غزالة، و من عينيها المغزولتين ارتشفتها انهمارا، كأنها كانت تلبى مشيئتك أنت فى السجود تحت طاقة المحراب... لقد أشبعت الجو حولى [صفحة ٢١٤] يا أبى بكل ما كان يخشعنى تحت طاقة المحراب... فأنت عزمى، و أنت مثالى فى مجتنى روحى، و أنت سيد فى جنان مخزونة للأمة، ستبلغها الأمة - عندما يتحقق بها صدق الرهان. لقد بدأت تطيب الأدعية خارجة من الصدر الأمين المنقوش بنعمة الرضوان. هكذا الغيث فى استجماع ذاته، كلما تكثفت به مطاوى الغمام... و هكذا - ركعة فوق ركعة - كانت تطيب الصلوات المكتوبة فوق لوحة الوجدان، كأنها قراءات الروح فى مهابة الرحمن. و لكن السجود على هذا المنوال قد طال: أطاله الحزن، و مد به التذكار المدبوغ بفضاعات كربلاء، فى ظل حكم لا يعرف معنى السجود و لا يبالى بقيمة الصلوات... أين هى الأمة الموعودة بمخزون الجنان؟ راح - فى استغراق - يسأل: - هل اذا تماديت أنا فى سجودى، أو اذا أنا ذبت فى صلواتى الضامرات - تتمتع الأمة بمخزون الجنان؟ و لكن الأمة بالذات - ما لم تقم - هى - بتدبيح الصلوات، لا تستقيم لها خيرات الحياة... لن يكون مخزون الجنان الا لمن يسعى اليه بالشوق البهى... يا ضعف سجودى، و يا ضعف صلاتى، لم [صفحة ٢١٥] ينجا الأمة من ذلها، و لم يفكا عنها نعال العبيد. و أطرق عميقا يستنجد ذاته على ذاته، كأنه يفتش عن ذنب قد اقترفه و لم يتبرأ منه بعد... و انبرت له صورتان صغيرتان فى حدود الذات، و أخذتا تكبران و تتجسدان أيضا أمام عينيهِ فى حدود الذات، كان ذلك فى ساعة أغرقته طويلا فى سجود حزين، و لكنه لم يعد من غيبوبته تلك حتى لمح أحد أبنائه ساجدا قربه فى حالة انتظار. فابتهج به و هو يقول له: الأب: هل لك من طلب يا ابنى البيه لك؟ الابن: ابت... لم هذا الدؤوب؟ الأب: أى دؤوب تعنى يا ابنى؟ ألا ترانى أتجيب الى ربى؟ و بكى الابن و انسحب، كأن طلبه الى أبيه - من تخفيف المضنيات عنه - قد خاب. أما الامام الآن - و قد ارتسمت فى باله صورة ابنه ملتصقا منه تخفيف و طأة تضنى أكثر مما تجدى - فانه استقام فى جلوسه و هو فى تمام الاقتناع: - أعذرني يا ابنى، فأنا ما سددت اليك - فى الأمس - جواب الحق... أنت مصيب فى سؤالك: «لم هذا الدؤوب؟»... و الحقيقة انه دؤوب بحد ذاته مهدور... انه ركوع فى [صفحة ٢١٦] الزوايا... تخفيه الزوايا... و لا تبديه المرايا... على المرايا أن تفسر معنى السجود لا شكل السجود... و شكل السجود هو المظهر الخفيف المتمكن منه الساجد، أكان نائما فوق بلاس، أو مسافرا على ظهر ناقه - اما المعنى فهو المدى المطلوب أن تراه الأمة فى فعل السجود و اقامة الصلاة... على أن أسجد أمام الأمة، و عن الأمة، لا عنى أنا بالذات - و أن أصلى عن الأمة، و فى سمع الأمة، لا عنى، و لا فى مسمعى المسدود... فلا أسجد أمامها حتى أعلمها حنات السجود... و لأصلى أمامها بصوتى العالى حتى تسمع و تتعلم كيف تحفر فى نفسها حروف الصلاة... يا قيمة يا ابنى لهذا الدؤوب، ان لم يكن من أجل الأمة هذا الدؤوب... تماما كما فعل جدك الحسين: فانه جسد العنقوان تحت عين الأمة، فى عيان الشمس - و فى ملاأ الفضاء - و لم يجعله انتحارا و انهدارا، فى عتمة الزوايا أو حفر الخفاء! أصبت يا ابنى، أصبت فى ما قصدت... و راح الامام ينتظر بروز الصورة الثانية على باله الحزين... [صفحة ٢١٧] و تراءى له الصحابى الكبير جابر بن عبد الله الأنصارى، صاحب الرسول. لقد وفد عليه - ذات مرة - و هو غارق فى صلاة مديدة... فانظره واقفا حتى انتهى منها. و عندئذ قال له: جابر: «يا ابن رسول الله، اما علمت ان الله تعالى انما خلق الجنة لكم و لمن أحبك؟ فما هذا الجهد الذى كلفته نفسك؟». الامام: «يا صاحب رسول الله، اما عملت أن جدى رسول الله، قد فعل أكثر من ذلك؟». جابر: «البقا على نفسك - فانك من أسرة بهم يستدفع البلاء، و بهم تستكشف الأدواء». و التفت الامام الى ذاته و كأنه يرى امامه الأنصارى العظيم، فرد اليه الجواب: - صدقت يا صاحب الرسول. أنا لم ألمح، فى تلك اللحظة التى كانت تقوقعنى بالحزن، ما كنت تقصد بتوسلاتك... لقد كنت تطلب فعلا - أن أوفر قوتى و أحفظها لمجابهة الأتعاب، من أجل الأمة و تحضيرها لأيام المآب، و تخليصها من الأعباء و الأوصاب، للنهوض

بها من تحت المحن... فأنا لست بحاجة الى صلاة تنيلني السماء، فاني من بيت طهرته الصلاة من أى رجس... اما [صفحہ ٢١٨]

صلاتي فلتكن من أجل أن تتطهر الأمة من أرجاس يغرقها فيها رجس الآثمين المعكرين الماء، و الصفو، و جنان الحق الموعودة بها أمة محمد. انها اللحظة المستنيرة المهتدية الى حقيقة الذات - هزتها دفقة رشيدة من دفقات الوعي المجرد - سحبتها من عتمه حزن ذليل عتم النفس و ضيق عليها مجالات التعبد، و حقيقة التشهد، و أفراح الصلاة... انها عمق الهداية للمهتدين و صحة الايمان للمؤمنين، و رجاء السجود للساجدين، و صدق الوعد للمتعبدين المتصبرين الموعودين... في هذه اللحظة المستنيرة - بالذات - تنور سقف غرفة هو فيها الامام يصلي، و اذا بأبيه الحسين يملأ المكان ببهاء عينيه... فنهض الامام و ارتفع خفيفا نحوه... و راح من عمق الصمت يلهل في حضرته هذا الكشف الرصين: - طالما زعزعتني الحزن عليك... و لطالما حاولت أن أبريه... و لم أرد - لأنني اعتبرته مسربا اليك... و الحقيقة أن الفرح، لا الحزن، يوسع الدرب اليك... فأنت ما أقدمت على البذل النفيس، الا تشهيرا بالذل الخسيس الذي يقضى على فرح الحياة و يحرم النفس من الابتهاج. [صفحہ ٢١٩] - كثيرا ما أتذكرك يا أبى - و أنا طفل لم أكن قد وعيت بعد أبعادك - تقترح على أن لا أحترم الحزن، و أن أعريه من حروفه - لأن حروف اسمه سوداء، فهو كالجرذ يقرض قمصان الحياة و يجردنا من ذاتها الندية... و الآن فهمت ما تقصد: فالذل الذي يسببه الجهل، و الحقد، و الطغيان، هو الذي يلفلنا بالحزن، مبعدا عنا مطارف الفرح... ان محو الجهل، و تحضير النفس للانتفاض على البغض و الكفران، هي كلها الكفيلة بالانتصار و استرجاع الفرح الى مناديله الزاهية - و عندئذ، هي الأمة في خطها الواعي و حقها الشبعان... الأمة - دائما - هي صورة الانسان في مجتمع الانسان، انها أمة جدى الامام - و أمنا نحن جميعا، في رسالة جدنا العظيم، و علينا نحن أن نخلصها من جهل يضعفها و يعرضها لمقاضم الجردان. - منذ هذه اللحظة يا أبى قررت أن أمسح الحزن بكآبه حلوة لا تخلو من فرح قنوع... و عزمت على أن أنقل سجودى و صلاتى من مخدعى المعتم الى فسحات العراء، حيث أفتح مدرسة تعلم الناس كيفية السجود، [صفحہ ٢٢٠] و نوعية الصلاة... سأضبط سجودى فى عب الحروف، و أعلن صلواتى فى حبر الكلمات. حتى ترانى الأمة و تتعلم، و تسمعنى الأمة و تتفهم... و لن تكون لى - أنا - عمليات السجود و لا تنوعات الصلاة... فليكن لكل واحد سجود خاص يحفظه عنى، و يتلذذ به فى محنة نفسه - و لتكن لكل فرد صلاة يأخذها من رأس قللى، تعبر عن موجدة روحه - و الله هو الكريم فى يقظة كل ضمير، و واحة كل مشتاق، يلبي نداء الوعي فى النفس، و يغطى الشوق بفسحات الرجاء... و لن أصلى بعد الآن لنفسى حصولا على عطاء - فان الله شرفنى بالعطاء - ولكن الأمة كلها هي الأ-حوج للعطاء، حتى يستفيض عليها - فى غداها المقبل - كل الجمال و كل السخاء. و لم يسكت الامام الا و هو ينتظر من أبيه رداد الرضى، أو رداد أخرى تخفف من وجيف الذات. و لقد لباه رضوان أبيه و أملى عليه هذا المقال: - أنت على صواب يا ابنى، تكمل ذاتك بوجيف ذاتك... من منا لم يكن هكذا فى تقلبات الوجيف؟... غير انك اكتملت. - انى أبارك لك اهتمامك بالأمة، فلو لا [صفحہ ٢٢١] الأمة لما هبط جدنا من غمام و ارتفع فوق غمام - و لما ذاق أبى الامام طعم المجد منحوسا بشفرة سيف... و لما تحجر الدم فى وريد عمك الحسن بلعقة سم... و لما شربت أنا كأس الفرح يغدقه على أحقر الناس... - الجهل فى الأمة و شلل اليقظات فيها، هو الذى خدرنا و عجل علينا خطوات الرحيل - ما عدا ذلك فاننا ما حرمانا بهجات الجنان، لأننا و فينا ذمة الحق فينا، و قسطناه ردودا منوعة الآذان. - لا تقل يا ابنى: ان جهد الخير فينا لم يؤث المجتمع من نضج الثمر - فليكن اليوم على ابتسار - ولكنه سيكون، فى نهار آخر، على نضج ثان فيه الكثير من طعم الشمس، و فيه اللذيذ من انداء السحر... اننا الخميعة، و اننا لا نقدم الا فعل الخمائير، فى نقل الأمة من واقع خفيف النظر الى واقع جديد البصر، تحقق الأمة فيه نقلتها الأمانة. - بالأمس - يا ابنى - قدمت عنقى لسيوف المجرمين، معلنا مجد العنفوان، مضيفا على الأمة رؤية رفض الهوان، حتى تتعلم - بالعيان [صفحہ ٢٢٢] - كيف أن الذل يقصف، و كيف أن دم الانسان الأيبى يقوى فى وعى الذات على دحر الهوان... و تلك هي أعز سبل الانسان، يجترحها العنفوان، و يغنيها الكرم الصحيح المفتقر اليه مجتمع الانسان. - و تجاوب و عى الناس معى - و لو وعيا جهيضا - فى مدينتنا يثرب، و لقد شاهدت أنت بأمر العين واقعة «الحره»... انها جاءت على ذكرى، رفضا كرفضى، و اباء من نوع ابائى... فلتباركها الأيام، لأنها هزمت

مثلما أنا هزمت، و ديس فيها المسجد بنعال خيول مسلم بن عقبة!!! كما ديس بدننى فى كربلاء بنعال خيول عبيدالله بن زياد. - لا تيأس يا ابنى، و لا- تسمحن للحزن بأن يستبد بلبك... فثورة الثوابين فى الكوفة كانت امتدادا لثورة الحرّة، و لقد هزمت أيضا، بعد أهبة أخذت من الوقت أربع سنين... فليستشهد الأبطال فيا، مثلما استشهد شيخنا الأبى سليمان بن أبى صرد فى عين الوردّة من أرض النخيلة.... و ليقتل معه المسيب بن نجبة، و عبدالله بن سعد... و لينم عدد الشهداء، كما ينمو المن فى لوعة الصحراء... انها نعمة العنفوان، تهبط فى [صفحہ ٢٢٣] أرض التيه و تفرز شوكة مباركة الزهرة فى عطرها البكر... - انها الشوكة المباركة يا ابنى الكبير، غمرت بعطرها المختار بن يوسف الثقفى، فى ثورة مقدسة الجوانب، لها جذر يعيش عميقا فى تربة الحرّة، و جذر مبلول بخطيئة ندم عليها فى الكوفة رهط التوابين.... اما الجذور الأخرى التى لا تزال هاجعة فى الأرض، فانها فى انتظار أن يذوب الريب من جيوب الدم، و أن تتصفى الأنفاس من عفن بثه الكيد، و الجهل، و العار فى مجارى الريح، و لا تزال مخدرة به تلك الضمائر. - لم يكن بد للمختار من أن يتناول شريط النار الا من فتائل النار، ذلك كان حظه التاعس من أخذ الثأر، و كما حز رؤوسنا شمر بن ذى الجوشن بمقدرة العبيد بن زياد، حز المختار رأس ابن ذى الجوشن، و رأس العبيد بن ذى الزباد، لتكون للثأر رقصة الثأر فى مواسم القبائل... فلا تفرح يا ابنى الامام الا قليلا قليلا فى بهجة العرس، و انشر التهليل فى حروف الصلاة المعلنة على آذان العباد، حتى تنتجى الأمة من تسلسل الأثار، و تغدو وحدة متممة بالحق، و العدل، و بهجات [صفحہ ٢٢٤] العنفوان... فلا- يقعداها عن المجد ذل أسود، و لا- ينثيها عن الطريق عثار... و انها - ساعة- تلك - فى حضان نبيها العليم العظيم، و تكون فى حقيقة مشتهى جدك العلى النبىاس و المتراس، و تكون بأجمعها جوابة فى حقول الظن المروية بالعلم، و الفهم، و الوعى، و اليقين. - طوباك يا ابنى الامام المتكامل بنقوش التراب... تقطع الصلوات من مهجة السر، و تطبعها فى قوالب الحروف - فيها العلم و التعليم، و فيها الحق للنشر، و فيها الرشد و كل آيات البيان... انك هكذا تعبى المسافات بثقل المسافات، و تجسد العنفوان بأضواء العنفوان، و تملأ الأنابيب بالمدخرات المعتقدات. فاذا كنت هكذا - مثقلا بهذه الطيبات - فلا تسأل كيف لن تفرغ أنابيبك من عطايك؟... ان الزمان طويل فى عمر الأمة... و عطايانا من نوع الخمائر... كلما مستها حفئات الطحين، تخمرت بسرهما حفئات الطحين... أذكر جدك الباقي فى خزائن الأرض - انه هذا الصنف من الخمائر. و أسمع يقول: للباطل ساعة، اما الحق فلقيام الساعة... انه هو الذى باركك فى الكوفة [صفحہ ٢٢٥] قبل أن يرحل، و لقد قرأك فى جبينك و عينك، و قال لى: سيكون فتاك هذا يا حسين - زين العابدين - عندما سكت الحسين - ربض الامام زين العابدين على الأرض - تناول سكيننا برى به غزارة بين يديه - غمسها بالحبر - و راح يخط على لوح أبيض كان بالقرب منه... يا للصحائف بين يديه... كيف بالحبر ستسود... أكون صحائفه قناديل فى قب المآذن؟ [صفحہ ٢٣١]

زين العابدين

اشاره

لقد ذاب على بن الحسين فى الصفّة التى نعتته - و منذ اللحظة تلك ابتلع أفعل التفضيل اسم مولا، و أصبحت صيغة الاسم الجديد قائمة بذاتها - اما على بن الحسين، فلنفتش عنه فى كربلاء، و عند عبيدالله بن زياد، أو عند يزيد بن معاوية، أو - اذا عز بنا التفتيش - خلف عتبات صامتة، حيث يسجد كل يوم ألف سجدة، من دون أن نبقى له اضبارة من وقت ينصرف فيها لمعالجة شؤون الناس، و هو القيم على امامة لا- تستقيم ضلوعها الا اهتماما بشؤون الناس. لا - يا أيها المحصى على الامام عدد السجديات - هنالك أيام طويلة موصول بعضها ببعض، لا ينفصل فيها ليل عن نهار، قضاها الامام فى حالة سجود كأنه الاغماء المتواصل، رمت فيها فظاعة الجريمة التى مثلت تحت عينيه: عملية حز رأس أبيه و شكه برأس الرمح، و الرقص به كأنه دمية من دمي الأطفال - و عملية الهمجية فى عرك بدنه المطهر، بنعال البغال و نعال الأندال. كان الحزن العتي يرمى الامام فى السجدة العتيّة التى لا ثوانى لها تفصل الليل عن النهار... انها

السجدة العتية - كما [صفحہ ٢٣٢] رأيت - و هي الدهر كله في مجالات الامام، أفرد ساجدا، لا ألف سجدة - يوما - تحصيها يوسه الأرقام، بل سجدة واحدة بمعناها الفخم، دغمت مفاصل جسمه بروحه، و صاغته فريدا في السجود العالی الموحد. عندما تمت سيطرة العقل و سيطرة الروح على الحزن، و تم تفكيك عرى قمصانه السوداء، نقل الامام الركوع من ركبتيه الحزبنتين المعفرتين بالتراب، الى علاء جبينه الغائر في السحاب... ثم تناول قلمه الراسخ في معطيات الروح، و راح يسجل السجود - بمعناه الرفيع - أمام الناس على صفحة القرطاس، حتى يعلم الناس، كل واحد بمفرده من صفوف الناس، صلاة يبدع بها ذاته، و يخلص ركبتيه من سجود العبيد، و يرفع جبينه الى شموخ محرر من ذل العبيد. تلك هي اللحظة الكبيرة - لحظة نقل الصلاة من عب المصلی، الى أعباب العلاء - لحظة جعل الركبتين تحسان انهما - و هما تلمسان التراب - تشریان السحاب. لقد ابتدع الامام اللحظة الكبيرة هذه، و قررنا نهجا من النهج الفاعلة في حياة الأمة التي ينقصها العلم الصحيح، و الفهم الصحيح... منذ زمن قد طال - أفلتت من أيدي الأئمة سياسة الأمة، و اضحت بين أيد لا- يهمنها من أمر الشاء غير امتصاص ضرعها، و جز صوفها، و مص دم فصيلها، ثم الفتك بها في ساعات [صفحہ ٢٣٣] العربيات... ان القصور في الشام، بين يدى يزيد بن معاوية، تشهد للسيادة العاهرة المطلية بحميا الخمر، و ألوان التهلك و الفجور... اما الأمة المجردة من أوليائها، فهي التي ترقص هناك - وحدها - بفقرها، و جهلها، و عريها، و قبليتها المفككات. من للأمم النقية - غير ابنها الصحيح - يتولى أمرها و يحميها من الضيم؟ و الامامة المشتقة من صدر الأم - لغة، و شوقا، و صدقا، و حسا أصيلا - هي بنت الرسالة المؤمنة و المقتنعة بايمانها بأن الأمة - وحدها - هي ملاذ الانسان، و خلود الله في الانسان... و لن تخلد أمة على وجه الأرض اذا تملص الله منها... انها - ساعتئذ - أرض يباب، و خراب خراب - ان الله باقه المثل، و ان كذبه واحدة، تأكلها الأمة - تشتتها على وجه الأرض شذرا شذرا - انها هكذا تبددت قبيلة اليهود، تملكك الله - بالكذب، و الحقد، و الرياء - قبيلة اليهود. ان اللحظة التي تناول الامام فيها قلمها و راح يجره على لوحة القرطاس، هي التي قفزت به الى قدسية العبادة، و قدسية الابداع. ان الجوهر المتحومل في جهاز الامام على بن الحسين، بدأ الآن يتفجر من مجاريه... اما سجوده الكبير، و صلواته العريقة، فانه وظفها كلها في مهماتها الجليلة، بنقلها من مسارب الذات، الى بحبوحة الدائرة الوسيعة الشاملة قضايا أمة بأسرها، تمتد من الساعة، الى قيام الساعة، في عمرها المديد - فالأمة خلود كما يشاء الفهم المطلق - و رسالة جده النبي هي خلود في شأوها [صفحہ ٢٣٤] المطلق - و امامته المرتبطة بجده الامام على، هي امتداد الخط المطلق - اما المهمة فهي بذل أنيق متواصل، في سبيل أمة تحرمها السياسة من عنايه الأولياء. أما التعويض فهو الملىء بالوشى العفيف، يأخذه بعينه، و سمعه، و لبه، كل فرد من أفراد الأمة: أكان صغيرا أم كبيرا - ذا شأن أم و ضيعا - حاكما حليما أم ظالما غشوما - صديقا للأمة و دودا، أم عدوا لدودا... كل ما يتعلق بشأن الأمة أصابه بسهم، و علم، و فهم، و نصيحة... و هكذا - باسم السجود، و باسم الصلاة - سجد عن الأمة كلها، و صلى لها، و هو يعلمها السجود، و يعلمها الصلاة... اما الكلمات فهي مرصوفة رصفا أنيقا، كأنها من نهج البلاغة منتقاة - يزينها الرصف، و يزينها البيان، و يمرح بها الحق، و تغفو فيها عفة الجنان، و ترقص بها موسيقى، كأنها نغم الوجد، أو لوعة الوجدان - اما الصدق فيها، فليس له الى الخيال مجال، بل الى التحلى به تقديم المثل... تلك هي كلماته في صحائفه البيض، و في تعريفه الأبيض عن الحقوق و الموجبات. و تلك هي القيمة الجليلة التي حولت الصلاة معه من تقليد الى تنصيد، و من نهج ضيق الى رهج رشيق، و من مسارب الذات الى مفاصح الذات... فى تلاعب فنى أدبى، يحمل الرمز من مسلسل الرمز، و يوشى به عاتق الميزان - انه الأدب الرفيع فى ساحاته البليغة، يسحب الكلمة من مغالقتها الأنيقة، كأنه القيم فى توسيع الحروف، و زرع المعانى فى مفاصلها الرشيقة - كأنه الوريث [صفحہ ٢٣٥] الأمين لأجهزة الضبط فى خزائن الارث المليئة بعقود الجوهر - كأنه المتخطى درجات الفكر فى الزمان و فى المكان - كأنه وصله عصر قديم كان زاهيا بالعلم، و الدرس، و الكشف عن جوهر الانسان، ينقل عنه و منه الايمان بالله الباسط ظله فوق اللابدايات و اللانهايات، و خلف المجردات العتيقة، و خلف أى مكان و أى زمان - كأنه اولى المسؤول عن أمة لها يوم أول فى تذوق الحق، و ليس لها غد ينثها عن راحة الرحمان... انها الأمة العظيمة، أمة جده العظيم، و هي المتربعة فى حقول الطيب، و ليس لها أن تغيب من بال الزمان، الا أن تتعدى حدود المكان، و تنشر الطيب على أمم الأرض، و

تجنى السلام مربوطا بجبال الونام... تلك هي مهماته الكبيرة، طالت بها قامته الصغيرة، واستراحت مزاياه... هنا يجدر بنا التبسط قليلا بالتلميح: لم تنجل تماما شخصية الامام زين العابدين، ولا أشرقت علينا مزاياه، الا حين اعتنق قضية الأمة وابتكر خطوط مهماته من أجلها. أن يسوس الأمة مباشرة بطرق دستورية - شرعية يفرض فيها الأحكام والموجبات، ويسن من خلالها القوانين الملزمة، فتلك - لعمرى - هي الخسارة التي منيت بها الامامة في اجتماع السقيفة - وها هو العهد الأموي لتبليغ الخسارة، و تجميد الامامة في مركز رمزي لا شأن له في توجيه السياسة و تصدير الأحكام... هنالك ترضية زهيدة يحصل عليها كل امام بمفرده، يخصصه بها بيت المال في الدولة، يصرفها الامام على شؤون المعيشية - العائلية الخاصة... [صفحة ٢٣٦] انها منحة كل عهد بمفرده، تضوّل أو تغزر بنسبة ما يرتنى الحاكم، و بمقدار ما تعتبر شعبية المتشيعين فاعلة في معارضة الحكم و عرقلة في بسط السيطرة... لم يهدأ الصراع أبدا بين الخطين: خط الامامة المغلوبة على أمرها، و خط المتسللين على كرسى الحكم بطرق ماهرة و قاهرة هي الآن في يد الأمويين في الظرف الراهن... انه من الواقع أن نقول: خسر خط الامامة كرسى السياسة، ولكنه لم يخسر مركزه المحترم في الأمة - حسب من ذلك عدم تمكن الغير من سلبه حقوق القربى، فالبيت بأجمعه هو بيت النبي الذي محض الأمة بالرسالة، و جمعها بالدين، و شدد عليها الوصية بتسليم الزمام من بعده لأهل بيته الذين هم - وحدهم - أئمة... من هنا أن الاحترام المقدس أصبح فرضا على الجميع، و من جيل الى جيل - بنوع انه من العار على الخصوم أن يملصوا من احترام يفرضه الواجب، و الحق، و الواقع الصريح. يتبين من كل ذلك أن شخصية الامام - بدورها - هي التي تضمن لمركز الامامة احتراماً يتعدى ما هو مفسوح لها بين يدي حاكم، كل ما في جعبته خطط يتحایل بها لمحو الخصم من الساحة العريضة، فيخلو أمامه الجوى، و يحلو له قصب السكر. أن لباقة الامام، و مرونة الامام، أو فلنقل: عبقرية الامام، هي التي تجنب الميزان من الانحطام، و تقوى الكسب في معركة ليس فيها الا رصيد أعزل، و هو رصيد معنوى، سرعان ما ينتهكه [صفحة ٢٣٧] خصم يهزأ بالقيمة، و يتصلب بالبهتان. و لكن للرصيد المعنوى قيمة لا- يجوز - فى أغلب الأحيان - أن يستهان بها، و هي التي تلتقط بها امامنا زين العابدين، و جعل لها زبدا يرغى، كأنه تعبير عن جبروت البحر... و الحقيقة أن الزبد انفجارج من جبروت البحر، تحدث به الأمواج و هي تلبى صيغة الأعصار. تسليح برصيده الامام - و هو المنقوش به نقشا سخيا - و ربطه بالأمة ربط قضية بقضية - و توحدت مهماته و انصبت كلها فى القضية. كأنه الوحيد فى كرسى الحكم، يسوق التوجيه بصراحة التوجيه. و التوجيه وحده هو حاجة الأمة لرفع مستواها الى موازاة الصلاة... و ليست الصلاة أقل من شوق يحضر المشتاق لملاقاة المشتاق اليه... و ليست الأمة الا- المشتاق الى صفاء و نقاء، يعززان فيها الصدق، و الحق، و الاباء. العلم وحده يزين الطلب، و يملأ الفكر و النفس بمآرب الروح، و يرفض الظلم، و يأبى الخسف فى الميزان - و التقوى هي مخافة الله فى عبادته، و هي عائق الميزان... فأين هو الحاكم لا ينهد؟ اذا أزاح الله من مهجة الانسان؟ تلك هي الصلاة فى نهج الامام، راح يخط حروفها: ساعتين ساعتين فى ركعتين ركعتين كل يوم - ثم ينهض بها الى طواف فى شوارع الناس، يهجىء لهم حروفها فى تركيب المقاطع [صفحة ٢٣٨] - و يلحنها لهم بصوته العذب الموقع على سلالم القرآن... لا ليسمعها - وحده - المريض، أو الكسيح، أو المهيبض الجناح... بل ليسمعها - باذنه - الشبان النائم فى معجن التخمّة، و الريان الحاجز النهر فى جواره - و التقى المسكين المصلوب على عتبة قاضى المدينة، و الحاكم الغارق فى خوابى الاثم، و الكافر الهارب من عين ربه، و الأمة لا يوحدها النور و لا تجمعها اليقظات... أية نبرة فى صوته لم تتكحل بالعذوبة، و لم ترقص بالحركات؟ و أى حرف من دعائه لم يثقل بالعلم، و الحق، و الذل، اللطيف المروى بالتقوى و حلاوة الوجدان؟ فكيف لأى سامع أن يهرب من وقع تواشيعه؟ حتى و لو كان حاكما طرد الله من ضميره و مزق القرآن؟.. و هكذا كان أدب الامام، و أسلوب الامام، و قاعدة الفن الرفيع عند الامام: مناجل مناجل، حصدت له - من كل الحقول - حزما حزما من الاجلال، و الحب، و الوقار، مشى بها فى مهابة عز لها النظير، لها فعل السحر على المأخوذ، و هنا فقط - مع الامام - يصح نعت السحر: بالحلال. يمثل هذا السحر جبلت قصيدة الفرزدق فى ساحة الكعبة - رشق بها الخليفة هشام بن عبد الملك، الذى تجاهل اسم الامام: هذا ابن فاطمة ان كنت جاهله بجده أولياء الله قد ختموا يغضى حياء و يغضى من مهابته فلا يكلم الا حين يبتسم [صفحة ٢٣٩] و بهذا السحر الذى كان فى

بداية اشعاعه أخذ المهرج في الكوفة عبيد الله بن زياد... و بدلا أن يحز رأس الامام، و يعجن بدنه بوطء النعال... أنعم عليه بالحياة، و أحاله الى الشام حتى يتبصر يزيد بأمره... و بهذا السحر أيضا أخذ الطاغية العريد - يزيد - فاتهم ابن زياد بكفرين: لانه مثل برأس الحسين - و لانه ذل ابن الحسين... و أمر النعمان بن بشير بان يشد قافلة التكريم، يحمل فيها الامام ابن الحسين الى يثرب، حيث سيجلو ابن الحسين جوهره نفسه، و يمسحها بكاآبه روحه، و يختصر اسمه ب - زين العابدين - [صفحہ ٢٤١]

رسالة الحقوق

و رسالة الحقوق؟ انها - بحد ذاتها - تؤلف صلاة طويلة جدا، صلاها الامام زين العابدين بما لا يحصى من أفعال السجود لأجل تعليم الأمة كيفية ضبط انسانها بما يترتب عليه من حقوق و موجبات. لقد جعلها بحثا كثير الاقتضاب، حصره بمقدمة صغيرة تبين أهمية العمل من أجل صيانة الأمة بصيانه انسانها و توجيهه التوجيه الصحيح - و بتفصيل قليل التوسع وزعه في خمسين عنوانا، يحتل كل واحد منها اشارة خفيفة الى المضمون. بحكم الطبع، ان كل عنوان بمفرده يحتاج الى شرح و سيع، و ذلك ما لم يكن في طاقة الامام القيام به، لانه من تخصص علم النفس و علم الاجتماع، و ذلك يتطلب مجلدات من البحث و التدقيق، و لم يكن الوقت موفورا للامام حتى يتفرغ للقيام به. الا أن مجمل عناوين الرسالة يشير - و لو بشروحا المقتضبة - الى كون صاحبها عالما اجتماعيا متمكنا، يربط علمه برسالة منزلة لضبط أمة لا يكون لها وزن لها ان لم تكن مؤمنة باله كريم، يغمرها بالمثل، و كل مقومات الجمال. و الحقيقة أن لا قيمة للرسالة العظيمة الا متفاعلة في أمة [صفحہ ٢٤٢] عظيمة... تلك هي حقيقة الارتباط، ارتباط حلول الجوهر في جهازه الضمني - و الرسالة هي للانسان الذي يعيها و تبنيه. و الا، فكل شريكين بلا التحام الى انهدار حزين. أول عنوان في الرسالة كان: حق الله - اما الشرح الكبير فكان في التلميح الصغير: بان التوحيد من حق الله على الانسان - و فقط التوحيد - انها بديهة من البديهيات، على العقل أن يدركها و يقطع بها مجالات الشرح الطويل - اما الفلسفة، فلتتم تحت حبال المجرات حتى تحصي عدد النجوم. و ثاني عنوان في الرسالة كان: حق النفس - اما الشرح و التحليل فكون النفس خلجة من خلجات الحياة، و هي روح الله في المخلوق... و طاعة الخالق حق عليها في الشكر الرفيع... انها بديهة ثانية تختصر دونها شروح الفلسفات. ثم ان النفس هي الانسان الذي هو: - لسان... ما أطيعه يعبر عن النفس بالصدق و نصاعة البيان. - و سمع... لا يجوز أن يرهقه غير الحق، و الابتعاد عن سماع الكذب و الأراجيف. - و بصر... يرى الجمال منزها من كل شناعة. - و قدم... تمشى فقط على دروب الخير [صفحہ ٢٤٣] لأن الشر يحطمها. - و يد... تمتد الى العمل الشريف لأن القبح يبريها. - و بطن... لا يجوز أن يمتلىء الا من حلال الدنيا و الا فهو بيت الداء. - و رحم... تحضن النسل لحفظ خيط الحياة، تطيبها العفة و تفرحها الفحشاء. و على الانسان أن يذكي نفسه بالصلاة، و الصوم، و الصدقة، و حق الهدى: - الصلاة... تقربه من الله في خشوع دائم - - الصوم... جلوة البدن مما يغشاه من تخمة تعرقل فاعلية الصحة فيه و هو - أيضا - تحضير الارادة لتحمل الجوع و التحفز لمشاركة الفقراء تخفيفا من غائلة العوز عنهم ما أمكن... - الصدقة... و من أجلها صدقة السر - فهي تداخل روحى فاعل في تقديم المعونة، من دون تعريض المحتاج اليها لذل الطلب. - الهدى... و هو ترويض العابد بزيارة الأماكن المقدسة التي هي تذكير له بأن الله عز [صفحہ ٢٤٤] و جل هو الحال فيها لانه حقيقة المصدر. أما الانسان فهو المصنف في الأمة الى مراتب، اما المرتبة الأولى فهي مرتبة الأئمة. و قد اعتبر الامام أن مركز الامامة مركز ينضوى فيه كل مسؤول في السياسة، و الحكم، و التعليم، و التوجيه، و الادارة... و خصص كل واحد منهم بالطاعة، و المحبة، و الاحترام، حتى يوفى كل واحد منهم مسؤوليته، بما يلزمها من الصدق و الوفاء - اما الحاكم - بنوع خاص - اذا أساء و لم يخلص لمركزه الكبير. فأوصى الامام أن يؤخذ أمره بالروية، و أن لا يجابه بالعصيان، لأنه المقتدر في الانتقام، و يكون وقع الضرر منه على الرعية فادحا و مؤلما... ان الله - لحكمه منه - يتولى أمره و يصلح - مع الوقت - من شأنه، و لا بد من نصائح يقدمها له الغيرون الفاهمون، تعدل من غلوائه، و تعيده الى حقيقة الرشد. أما الحقوق فهي التي كانت بساط العرض: - على الحاكم أن يكون غيورا على الأمة و أن تحليه التقوى، و المعرفة، و الحق، و العدل، و صدق الايمان.

- و على المعلم - صائغ الفكر والحضارة - نزاهة القصد، و لين الطبع، و صحة الوجدان. - و على المؤذن و امام الجماعة، حسن [صفحه ٢٤٥] التوجيه فى تبليغ الاشارة. - و على الأب و الأم تزيين القلب بالمحبة المؤمنة، و الرعاية الحكيمة و التربية الصالحة. لأن الأبناء أجيال الأمة. - و على الأبناء تكريم علة وجودهم و تلك هى فضيلة الوفاء. - و على المولى أن يكون كريما مع من يتولى عليه و يسبغ عليه المعروف. - و على المنعم عليه بالحرية أن يحفظ الولاء لمن حرره من ذل العبودية. - و على الجار أن يحفظ حقوق الجيرة بالمودة، و الستر، و الألفة. - و على الجليس أن يتحلى بآداب السلوك. - و على الصديق أن لا يخون الصداقة و لا يبيعها بالمال، ان فى ذلك ذلا و غدرا... - و على الشريك فى الأعمال أن لا يخون الشراكة، و يبقى عفيفا فى تعاطيه الشريف. - و على صاحب المال أن يعتبر المال انتاج جهد شريف لا ربي فيه و لا تزوير و الا فالتصدق به أولى. [صفحه ٢٤٦] - و على الدائن و المدين صدق الأخذ و صدق القصد بالرد و ما عدا ذلك فالتسامح هو الأولى. و هنالك حقوق عديدة متشابهة، عالجه الامام زيادة فى الحيلة و التبصر: كالمستشير، و المستنصح، و الناصح، و الكبير فى السن، و الصغير فى العمر، و السائل و المسؤول... اما حقوق الملة فهى المحصورة بتأمين السلامة لها، و وفرة الاحسان، حتى تبقى فى اضطراد نموها الخير المؤمن... اما حقوق أهل الذمة، فان ما قبل الله منهم وسع لهم الذمة فى التمتع بالحرية، و الطمأنينة، و الرخاء. تلك هى رسالة الحقوق - قدمها الامام للناس فى سبك بسيط و برىء. و بالكلام الكثير الايجاز. اما الشرح الواسع فانه كان هناك حيا فى التطبيق الذى يشهد له بانجاز كل ما يقوله و يبشر به تطبيقا على الذات... لقد آمن ايماننا مطلقا بالله، و كان هو - الخاشع الأمثل فى حضرة الله... اما رسالة الحقوق فلقد بدأها بحق الله، و عجنها بتقوى الله. و عززها بكل ما تقوله رسالة الله فى تبيان كل الحقوق و الموجبات، يضبط بها كل شاردة و كل واردة فى شؤون الأمة التى هى مستودع الرسالة، و جهازها الحى. ما شبع الامام من الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر، و اغاثة الملهوف، و القيام بالاحسان، و عيادة المرضى، و لملمة اليتيم، و التصديق بالسر، و التفتيش عن المعسر، و الرفق [صفحه ٢٤٧] بالجوارى و العبيد، و تحريرهم... منذ أن عرف أن غزاة أمه بالرضاعة - هى جارية، هب الى تحريرها و تزويجها لانشاء البيت السعيد... و لقد أحب جارية عنده لطيب عنصرها، فحررها و تزوجها. لقد كانت الأمة - فى نظره - ساحة الرسالة الفيحاء، يذود عنها بالغالى و الرخيص، و يحميها من الفساد، و يدعوها الى التكاثر و التعاضد و صلة الأرحام، و يمنعها من كل شىء يذلها و يبعد عنها المكرمات: فلا و شاية، و لا عمالة، و لا كذب، و لا طمع، و لا مسكر يضيع اللب، و لا فجور يرتكب المحرمات، و لا أية آفة تفرط المجتمع و تقلل من لحمته و من مداه... انه الاجتماعى المؤمن بالحق، و العدل، و الوفاء، و الصبر على المكاره، و هو المؤمن بالعلم محققا كل حضارة الأمة و جامعها فى طرق الصواب. و لقد كان جوهر رسالة الحقوق هذه محصورا حصرا مطلقا بمصلحة الأمة و سلامتها، حتى ان الحكم الذى لم يأنس اليه الامام، و كان يخاف من طغيانه و أثقال جبروته، أحاطه باهتمام خاص، و أولاه حقوق السيادة التى يتمتع بها فى الوقت الراهن، حتى يتحاشى غدره و فتكه، و يجنب الأمة من توسيع البلاء... و تلك كانت مرونته الحكيمة، يخدم الأمة بها، و يجتاز معها الساعات العvisية المشحونة بالأكدار و المخاطر. لا شك فى انه الامام الكثير اللطف، و الحكمة، و الروية، تلفه العواصف السوداء بحمولات سياسات رديئة الاعصار، يقوم [صفحه ٢٤٨] بها رجال سود الطباع: مثل يزيد، و ابن زياد، و مروان بن الحكم، و ذلك الأشرس من ذئب - الثقفى ابن يوسف الحجاج - و ينجو منهم - مع الأمة - فى آخر المطاف، و على رأسه حبيكة بيضاء، سداها و لحمتها: مهابة - و وقار - و خلود فى الذكر و شعاع قدسى المنار [صفحه ٢٤٩]

الصحيفة السجادية

دلالك أيها الامام - لقد محضتنا بصحيفتك السجادية مضمومة بثلاثة أبعاد: - بعد الهى - روحى ناهد القرب و ممشوق السحاب - و بعد رسالى - سياسى - اجتماعى الحق، و العدل، و الصواب. - و بعد بلاغى - فنى الآداء، عابق بكل شذا يسلسله التراب. بثلاثة أبعاد رزمت الصنيع و جعلته وحدة متلازمة و متماسكة، لا ينفك واحد منها حتى يعترى الصنيع كله ذل أخرس، يبهته و يفقده: الجلال، و

القصد، و الروتق... - ان فى البعد الأول ردهات الجلال الذى هو اطار الصنيع. - و ان فى البعد الثانى روعة القصد الذى هو [صفحة ٢٥٠] جوهر اللب و عماد القضية. - و ان فى البعد الثالث رونق المغزل و بهجة المكوك فى تطريز الأوشحة الملتف بها: رمزان عظيمان، لا تليق الا بهما سدانة الكلمة، و أناقة الفن. لزام علينا - قبل أن ندخل فى أى شرح و تفصيل - أن نلم بهيكليّة الصحيفة: انها سفر نفيس، تشبه تماما صاحبها، فحجمها صغير كقامته القصيرة، الا أن ذخرا رفيع الطول يوسعها بالمعاني الجليلة، و هو يرفعها الى ضخامات القرب، كما هو شأن صاحبها بالذات: سكب عليها - من شق غزارته النحيلة - هذا العميق المشع من مهابة تهتاج بها عيناه، و بنفسح بها جبينه. لا يزيد عدد صفحات الصحيفة عن مئة و عشرين صفحة، و هى بكاملها موزعة على أدعية رخيمة، يحصيها كتاب بين يدي بأربعة و خمسين دعاء، يأخذ كل واحد منها عنوانا خاصا، و حجما معينا من الصفحات، يتراوح من صفحة واحدة حتى يبلغ احدى عشرة صفحة فى دعاء عنوانه: «فى يوم عرفه». ان الكتاب - بكامله - يؤلف الصحيفة السجادية، ان كل دعاء - بمفرده - قائم بذاته فى استقلالية مجردة... و سرعان ما يربطك التأمل الخاشع بخيوط ترتبط بها شبكة المعاني، تمتد من أول دعاء حتى آخر دعاء، من دون أن تلمحها كيف تنساب من مسافة الى [صفحة ٢٥١] مسافة... كأن القصد الأنيق هو الذى يربطها على نول خفى الخيط و باهر المكوك. ان الاكتشاف الذكى هو الدليل الى خطوط الارتباط. و عندئذ فانك ترى أن الأدعية القائمة على ذاتها المنفردة، انما هى تساند جزئى - تضافرى، يتمم الواحد منها منع الآخر، فى لملمة وحدة الصنيع - تماما كما يقوم كل عمود من أعمدة الهيكل لتتم عليها جميعها وحدة السقف المتين. ليست الأدعية - اذا - مجرد آنية خزفية، نتجها و نزين بها رفوفا فى بيوتنا... انما هى تسلسل ارتباطى بوحدة موضوعية فى خدمة قضية معينة الأهداف، و جليدة المصير... لماذا لا نقول بتحديد آخر: انها عملية وصل قضية وجودية - رسالية - اجتماعية، بقضية أساسية - رسالية أصيلة، تمكن من تنزيلها فى قرآن، نبى الأمة و رسولها الأمين محمد. ان الصحيفة التى انقطع المام زين العابدين لها، و جرد فكره، و قلبه، و بيانه، من أجل تنزيلها فى نطاق الحرف... انما هى مفروعة من اسم لا- أصل له غير القضية... انها قرآن آخر، تفصيل مفروع منه، و مشروح باحدى غزاراته، و مطلى بأبعاد مراميه، و مغتن من مخازن ثرواته - و مديح بالكلمة الأنيقة المصوغه اطارا فخما لحول قدسية معانيه. انها القضية - على كل حال - و لا قيمة لفكر، أو صيغة، أو مقال، ان لم تكن له [صفحة ٢٥٢] قضية، تطيب له البوح، و النهج، و حجم المنال... ان القضايا فى الحياة تحرس الحياة، و تصونها، و تعين لها العمر، و عمق العين، و أبعاد الخلود... و ان لم يكن الله فى معناه العزيز و المحيط، لب القضايا فى جوهر الحياة، لما جاز لنا اعتبار ذواتنا من أبناء الحياة... لأن و عينا الله فينا، هو مجرد امتصاصنا المثل الجميلة، و الصفات الكريمة المتمثلة فى ايماننا به جامعا لهذه المثل و هذه الصفات - و عندما يتنكر المجتمع لهذه المثل، و لهذه الصفات - فهو الزائغ عن الله، و الكافر بالنعم التى هى مرصودة به، و لن يكون لهذا المجتمع - بالذات - الا الامحاق، و هل تكون الجحيم الموصوفة بحدّة نارها من غير هذا الامحاق؟ و بالمعنى الصحيح - ان القضية، قضية الأمة التى من أجلها انبثق الوحى، و انجدلت سور القرآن، هى ذاتها التى اجترحت يوم الغدير، و تقدست فى نهج الامامة، و هى التى شربت دم الحسين و اعتبرته بذلا سخيا... و هى ذاتها القضية، كان لها اندفاق قدسى الهبات على شخصية الامام على بن الحسين، نقلته من كل عتبات السر، و فاضت به على مشارف الاعلان، فاذا به علم من الأعلام، يمتشق الحسام و ليس فى يده أى حسام، الا حكمه طرزها بالحرف، و حماها بالله، و وهجها بالفن. انها قضية أمة تعينت لها - فى الرسالة و فى الامامة - أهداف [صفحة ٢٥٣] الصيانة، حتى تستقيم لها دروب العز... و لكن الذين تسابقوا الى ضفاف الحياض، ما همهم من امتهان الشجرة الا اقتطاف الثمرة... اما الرياض كلها فالى و قود جهنم... ان الامامة - وحدها - تعرف قيمة البستان، و ان حنين الامامة - وحده - هو المستشعر بأنين البنين... و هكذا انطلق الامام مستنجدا ببراغته يبريها و يخط بها حروف البيان... فالأمة المرمية فى الأزقة - انما هى الآن بحاجة الى من يتداركها الى يقظات ترشدها الى سواء السبيل. [صفحة ٢٥٥]

إشارة

ليس علينا من حرج اذا نقول: لم يكن صنيع الامام شديد الحاجة الى الأفكار يملأ بها صحيفته و يعرضها للعيان - فالأفكار التي هي مصدر غناها هي ذاتها التي فاضت بها دفئا القرآن، و هي ذاتها رصيد دفع سماوى الحق، توحدت به أمه كانت مفروطة تحت غفلات الزمان... أجل - لا الأفكار، و لا الرسالة، و لا المبادئ المتينة كانت تنقص الامام من أجل تحبير صنيعه، ان ما كان يحتاج اليه الصنيع، هو تخطيط صياغى تنام الفكرة فيه و لا تصحو الا حين تستدعيها غمرة الفن، و لحظة الابداع - و عندئذ فان الفكرة ذاتها الحالة هناك فى سور القرآن، هي فى ولادة ثانية جديدة الحق و جديدة التبيان، و فى صنيع ثان جديد الانبثاق، و جديد اللمعان... ان الأساليب - عند خسوف الشمس - تستعيد بهجة الشروق... و العقل، و الحق، و الصواب، هي القوى الصاعدة على درجات السلالم. و تم التخطيط فى قالبه البديع - تم عندما كان الامام فى محراب الألم، و محراب الحزن - بدأه فى الكوفة بين يدي عبيد الله بن زياد - فلنتذكر ذلك - و زاد عليه ريشة عنقائية الصدر، بين [صفحة ٢٥٦] يدي من كان يمثل فى الشام بعنق مشكوك برأس حسام - فلنهمز قليلا من قنأ التاريخ حتى تتجدد أمامنا قباحة الهمجية - و أتمه فى يثرب، بعد خلوة مصت ليليه، و مصت حزنه الأجرب، ثم مسحته بكآبة الروح، و أسبغت عليه جلاله الفن... و امثل الصنيع - بعد تنشيط طاقات النفس و الروح - قبة خلف قبة، كل واحدة قائمة بذاتها - هكذا رحنا نظن - و لكن عطشا مزروعا فى كل قبة على حدة، كان يشد الى الثانية حتى يرتوى... و اذا بنا فى واقع المسلسل، يتجمع العطش فيه و يتدور، و يشتد الطلب على سده، و لن يخفف العطش الا للمح، لمح القصد السارح فى لباقة العرض.

العرض

و كان العرض كثير البراءة، على موسيقى أنيقة، تأخذ كل دعاء منه اليك لأناقة وقعه، قبل أن يستوقفك تفتيش عن مقصده و مراميه - حتى اذا تمكنت منك أسرار المعاني، أدركت أن العمل موزع من مكانه، ليصيب منه - كل فرد من أفراد الناس - ما يصله فى علنه أو فى سره - فالعمل كله أديع، و كل دعاء بحد ذاته، انما هو صلاة يوجهها الانسان الى ربه: اما شكرا على نعمة قد نالها، لا يتمكن أحد من ادامتها عليه غير الخالق الذى أسبغها - و اما التماسا لنعمة يسعد بها فى وجوده، و لا أحد - أيضا - يتمكن من انالته اياها غير موزع الخيرات من خزائنه العيمة. [صفحة ٢٥٧] حدان - لا - أكثر - تركزت عليهما الأدعية: الأول هو الله - عز و جل - مصدر الوجود، و رب الحياة، و بارئ الأكوان... و الحد الثانى هو الأمة أو مجتمع الانسان. و بالتالى: على هذا الانسان الاتصال الدائم بخالقه و ولى نعمته، حتى يحمده و يسبحه، و يشكره على افاضة الخير عليه و هو فى حضنه الكريم. و راح الامام الى استغراق فى تعريف عظمة الخالق، و الى توسع فى وصف قدرته و جليل ارادته، و الى كونه المصدر المطلق لكل عناصر الوجود - فلا أحد قبله، و لا أحد بعده، فهو التوحيد الشامل البدايات، و النهايات، و كل أنواع الصيرورات... اما الانسان فهو المخلوق الأوحى الذى ابتدعه بارادته الحتمية، و ميزه بجهاز جسدى متكامل، أبرز ما فيه عقل يستوعب العلم، و الفهم، و الارادة و نعمة الادراك، حتى ينطق، و يعقل، و يتطور، و ينبج، و يبنى المجتمع الذى هو التعبير الأوفى عن مجد الله فى فحوى الحياة. ما قصر الامام فى الزلفى لله، و لا من تنويع الحمد على آلائه وجدواه - لا ليسمعه الله، و يجزيه على عمق خضوعه و فرط تقواه... بل من أجل أن يجسد العزة الالهية فى عين و ذهن كل فرد من أفراد المجتمع - مهما تكن مرتبة هذا الفرد فى النضيد الاجتماعى. ان الأمة جمعاء بحاجة ماسة للتمرس بمعرفة الله، لا ابتغاء [صفحة ٢٥٨] لكشوفات فلسفية تعبى فلسفات الأرض كلها عن احتوائها فى نصاعة التحديد... بل تعرفا اليه - عز و جل - مستودعا لا ينضب من المثل العليا، و الصفات الكريمة التى هي - وحدها - تبنى الانسان، و كل مجتمعات الانسات... يكفى أمير الشعراء - شوقى - بيت واحد من الشعر يوجز به خلود الأمم: انما الأم الأخلاق ما بقيت فاذا همو ذهبوا أخلاقهم ذهبوا ليس الله العزيز الجليل بحاجة الى أمم تدعى انها تدركه فى مدارج الفلسفة، و لا تعيشه فى مراجع الوجدان... و لن تجمع الأرض على سطحها أمما لا

تعيش الله الموصوف بانه خير و جمال، و بانه حق، و صدق، و عدل، و عفة، و اناقات خصال... أى اله يتمكن من بناء مجتمع الانسان: بالكذب، و الفحش، و البهتان؟ لا- بل أى شر تعمر به فسحات الجنان؟ و أى جحيم لا- ينزل اليها الشيطان؟ لا تبني الأفاعى و لا الأبالسة السود مجتمع الانسان... و لن يبينه الا- الآمرون بالمعروف و الناهون عن المنكر... ان الله - اذا - هو فى ساحات الحق، و هو الذى يحرس الحياة، و يزرع فيها أمة من أمم الانسان... و الله - ساعتئذ - هو الحى القيوم، لا يغفل شأن الانسان قيمة فى جبروته، و نبرة فى خلوده... و من ضمن الوعد الكبير المقطوع، يكون الانسان حيا فى ذمته العظيمة، و خالدا فى باله الأعظم... يتعهده و يكفكه [صفحة ٢٥٩] بالضم، و تسديد الخطوات - فاذا صدق فان النجاح ثوابه - و اذا كذب فان العذاب جزاؤه... ان النعيم كفاف الصالحين... و ان الجحيم مآل الخاطئين... اما التوبة فهى رجاء التائبين، تردهم الى صراط، و تخلصهم من عذاب، و هكذا فان الله رحمن رحيم يبنى أمة و هو يعلمها - تلقائيا - كيف تتأصل بالحق، حتى تكون الحياة نعيما لها فى الاستحقاق العزيز. بهذا التوجيه الراجح بالعقل و الايمان كان الامام يتمم عمليات الرص فى أدعيته المتسلسلة، حتى تصلها الأمة كلها و هى ساجدة معه فى محراب التقوى البانية مجتمع الانسان - سيصلها المتعبون، و المرضى، و المحرومون، و المظلومون، و الفقراء، و المضطهدون... و سيصلها - أيضا - الشبايع، و الراغدون، و الآمنون، و كل أفواج المؤمنين... و لن يرتاح حتى يصلها الناهبون، و الكذابون، و المجرمون، و الكفرة المارقون، و زناديق الفلاسفات، و المراؤون، و الخداعون، و الراقصون فوق القبور، و بين خوابى العهر، و الخمر، و الميسر... ان الندامة - وحدها - تردهم الى حق مبين... و لشد ما ينبغى أن يصلها المتربعون فوق كراسى الحكم و هم لصوص فى ثياب الأمراء. يدوسون العدل، و يشربون دم الأمة، و لا يتأثمون!!! يا ويلهم من حكم القضاء، سيعلمهم ان الدنيا حقيرة اذا تعرت من بهجة الضمير، و ان الأمة لا تداس، بل تساس: بالعدل، و العلم، و الحق، و النبل، تساس... لأنها ضمير الله فى جذع الحياة، و سر [صفحة ٢٦٠] المجد فى اعطاف الخلود... أما الله الخلق الكريم المخرج الانسان من نطفة حقيرة الى نعمة وفيرة، فان له الحمد الذى لا تنتهى حروفه فى التسييح و التمجيد... لا لانه بحاجة الى التمجيد - فالتمجيد هالة من هالاته المتلائة من نوره الابهى - بل لأن التمجيد صياغة حرف ينطق به الانسان فى حضرة من علمه ما لم يعلم، و أنزل عليه قرآنا و شاه بالسم محمد... يا للأمة - باسم محمد - تدرك الله، و تدرك النور الذى وسعها الى سماء لن يذوب منها سناء محمد... ألا يكفى الأمة أن تمجد الله - كل يوم - و هى تقول: صلى الله على محمد و على آل محمد. اما البيت، فليكن له جمع الدرارى، حمدا لمن نشر الدرارى لآلى فى الفضاء... و يا للأمة - أيضا - تخشع فى ترددات الذكر، من دون أن تنسى أن آل البيت صاغوا قدسية الرمز فى التمجيد الرفيع المتنورة به ضلوع السماوات. تلك هى مقولة الصحيفة السجادية، و هذا هو كل اطارها. سيكون لنا شوق الى موجز ملموم منها، يوضح قصد صائغها، و يعين مقدار حصته الغنية فى ايلاء الأمة بعضا من اهتماماته بها، على قدر ما أفسح له العصر الهارب الآن من حكم الأمويين، و العالق فى كماشة أخرى هى التى تلوح بها قبضة السفاح. [صفحة ٢٦١] البعدان: الالهى و الرسالى لا يؤلف البعد الالهى عند الامام الا اشارات و ملامح عن قوة سرمدية شاملة تغلف كل مظاهر الكون، و هى - بدورها - غير محتاجة الى أى تعريف و تحديد، لأن المطلق هو كل اطارها فى مسافات الزمان. اما التمجيد فهو حصتنا نحن الذين ابتدعنا الله من لطفه، و ميزنا عن كل مخلوقاته، بالعقل و النطق و العزم. هذا هو محور الصحيفة السجادية: لا تحدد الله العزيز و الجليل الا قوة مطلقة، لا بد للانسان من الخشوع لها خشوعا مدركا انها مصدره الشامل فى حقيقته الوجودية، و ان كل تحقيق حياتي - اجتماعي، انما هو ارتباط نسبي بهذا الادراك الحى. من الله الى المجتمع - و ليس المجتمع عند الامام الا- الأمة بأكملها - و من المجتمع الى الله، يدور مكوك الأدعية ذهابا و ايابا حتى تتم - فى النتيجة - حياكة السجادة التقية التى هى فنه الخاص به فى تعهد أمة يفوته أن يتداركها - مباشرة - بفروض التصويب و التسديد، ليكون له أن يقدم لها - مداورة، بلباقة و فن صياغة - ما تستعوض به، فى صحيفته، من توجيه تربوى مصيب يرافقها كلما شدت عليها محن زاغت بها عن خطوط الصواب. لقد كان الدعاء الأول، و عنوانه: «التمجيد لله» فاتحة الصحيفة، لأن الله هو «أول بلا أول كان قبله، و الآخر بلا آخر يكون بعده» و لانه «ابتدع الخلق ابتداء» و اخترعهم على مشيئته [صفحة ٢٦٢] اختراعا - «ليجزى الذين أسأؤوا بما عملوا، و يجزى

الذين أحسنوا بالحسنى» انسياقا مع الآية ٣١ من سورة النجم. وجاء الدعاء الثانى و عنوانه: «الصلاة على محمد و آله» ترسيخا لعملية الحمد لله الذى من علينا بمحمد الأمين على الوحى... و هكذا - من دعاءين - تحددت وجهة الأدعية كلها، تمجيذا لله العظيم مبتدع الخلق، و شكرا له من أمة محضها بوليها الأمين محمد. و راح التمجيد فى الدعاء الثالث و عنوانه: «الصلاة على حملة العرش» يظهر عظمة الله بمقاييسنا نحن البشر المتأثرين بما يقع تحت عيوننا من مظاهر العظمة التى يبدو بها أسياذ العروش على الأرض. و لكن حملة العرش عنا هم فى تعبير آخر يشهد أن عظمة الله لا حدود لها مع «اسرافيل صاحب الصور، الشاخص الذى ينتظر الاذن و حلول الأمر، فينه - بانفخه - صرعى رهائن القبور» - «و ميكائيل و جبريل الأمين على الوحى» - «و خزان المطر و زواجر السحاب، و الذين بصوت زجره يسمع زجل الرعود... و مشيعى الثلج و البرد... و الموكلين بالجبال فلا- تزول... و الذين عرفوا مثاقيل المياه، و كيل ما تحويه لواعج الأمطار و عواجلها». هذا هو الله الذى يليق به التمجيد... انه بارى الأكوان و سيد الأحكام و مطلق العناصر من خزائن الفضاء، و المبددها بين [صفحة ٢٦٣] أبعاد المجردات... لم يحدده الامام من ضلوع الفلسفات، بل بكل مظهر لا يدحض من مظاهره البادية للعيان. و على هذا الطراز راح الامام ينسج التمجيد لله الذى لا- يليق الا- له التمجيد، و صولا الى الدعاء الثامن و عنوانه: «دعاء فى الاستعاذة» - و الاستعاذة هى بالله من كل الآفات و المعاصى - فلنسمعه يقول: «اللهم انى أعوذ بك من هيجان الحرص، و سورة الغضب، و غلبة الحسد، و ضعف الصبر، و قلة القناعة، و شكاسة الخلق، و الحاح الشهوة، و ملكة الحمية، و متابعه الهوى، و مخالفة الهدى... و ايثار الباطل على الحق، و الاصرار على المآثم... أو أن نطوى على غش أحد... و نعوذ بك من سوء السريرة». لقد عين الامام الله مصدرا لكل صفة و خلة و مكرمة لا يصلح الا بها مجتمع الانسان - فانه هو الدين كله، و كل الشرائع التى انصاغت منها دساتير الأمم، منذ أن تلممت على وجه البسيطة جماعات الانسان. و هكذا فان الله - فى الدعاءين: التاسع و العاشر: «فى الاشتياق، و اللجوء الى الله» - هو القوى و نحن الضعفاء، لا قوة و لا استعانة لنا الا به... ليكون الدعاء الثانى عشر: «فى الاعتراف: بمنتهى الجزم بأن عصيان الله يجر علينا الويل و الدمار، و ليس من شىء يردنا اليه الا الندامة و التوبة... اما الدعاء الرابع عشر - و عنوانه: «الظلمات» - ففيه دعوة الحاكم الظالم الى التوبة [صفحة ٢٦٤] و الابتعاد عن الظلم، و الا فان الله مصغ الى طلب المظلومين: «و خذ يا الله، ظالمى و عدوى، عن ظلمى بقوتك، و افلح حده عنى بقدرتك، و اجعل له شغلا فيما يليه، و عجزا عما يناديه...» «اللهم، فكما كرهت الى أن أظلم... ففنى من أن أظلم» - «اللهم لا- تفتنى بالقنوط من انصافك، و لا- تفتنه بالأمن من انكارك... و عرفه عما قليل ما أوعدت الظالمين». اما الدعاء السادس عشر: «فى الاستقالة» - فهو صلاة ممتازة، قوامها اقرار بضعف الامام و كثرة معاصيه التى لم يستقل منها بعد - و ذلك من أجل أن يحمل كل واحد ما حتى يدرك انه معرض لارتكاب الأخطاء، و عليه أن يندم عليها، و الله غفور رحيم... و هذا فن فى انزال النفس منزلة المخطيء حتى يكون - هو - قدوة فى تعليم المجتمع اصلاح الذات، عن طريق التوبة و طلب الغفران. و فى الدعاء السابع عشر - «دعاء على الشيطان» - حملة عنيفة على الأشرار الذين يمثلون كل المعاصى التى لا يرتكبها الا الشيطان فلنسمعه فى صلاته يقول: «اللهم اشرب قلوبنا انكار عمله، و ألطف لنا فى نقض حبله، اللهم و اهزم جنده و ابطل كيده، و اهدم كهفه، و ارغم أنفه» و لشد ما يكون هذا الدعاء موجها - بنوع خاص - الى كل المتربعين فى دسوت الحكم، يذللون الناس بالظلم و التعدى، حتى بتنعموا هم بخيرات الأمة، من دون أن يوزعوها بالعدل و المساواة - و فى الدعاء العشرين - «فى مكارم [صفحة ٢٦٥] الأخلاق» - باقات حلوة تتغنى بالمكارم و حسن الصفات التى يجب أن تتحلى بها الأمة حتى يستقيم لها العيش الكريم، و هى غمز من قنائه الحاكم الظالم حتى يهتم - بدوره - باصلاح سريره، و الاعتناء بالأمة و رعايتها، حتى لا تهرب منها هذه الصفات... فلنسمعه بشوق يطلب من الله: «استعملنى يا الله بما تسألنى غذا عنه... استفرغ أيامى فيما خلقتنى له... هب لى معالى الأخلاق... و اعصمنى من الفخر... و عبدنى لك... و لا تفسد عبادتى بالعجب... و أجر للناس على يدى بالخير، و لا تمحقه بالمن... و سدنى لا أعارض من غشنى بالنصح... و أن أشكر الحسنه، و أغضى عن السيئه». و فى الدعاء السابع و العشرين - «لأهل الثغور» - استتزال غضب الله على كل من يتنكر للإسلام الذى هو دين الوحى و التوحيد، و ها هو يهددهم بهذا الدعاء الى الله: «أقلم أظافرهم... و شتتهم... و ضيعهم عن

سبلهم... و أربعهم... و عقهم نساءهم... و ييس أصلاب رجالهم» - حتى تعلقو شوكة الدين، و يتهيب المتنكرون لدين الله - حتى و لو كانوا مسلمين و تنكروا لاسلامهم، فان الله يجازي المارقين الكافرين. و في الدعاءين الثامن و الثلاثين و التاسع و الثلاثين - «في الاعتذار و في طلب العفو» - نفحات مكررة من رسالة الحقوق التي هي فروض ثمينه في علم الاجتماع... يقول: «أعتذر من كل من عمل معي معروفا و لم أشكره عليه... و من أخطأ الي فأرجو يا [صفحة ٢٦٦] الله أن تعفو عنه... و اذا أخطأت أنا ليه فعوض عليه أنت عني، و اغفر لي، فأنت أهل لأن يعتز بك الصديقون، و لا يئأس منك المجرمون». اما الدعاء السابع و الأربعون - «يوم عرفة» - فهو نهاية المطاف في الأدعية الجليلة التي تثبت المسلم الصادق في تمجيد الله، و الاقرار به الها قديرا جامعا كل شيء تحت ارادته الشاملة... أن عرفة جبال تزار في الحج... و في عرفة يدعو الامام دعاء مستفيضا من أجل اصلاح الأمة، و اصلاح السياسيين في كل حين و في كل جيل، حتى يكونوا خير من يقوم في تثبيت الأمة على كل الركائز الاجتماعية الصحيحة التي هي المدى الصادق في تأليف المجتمع الممتاز المتحلي بالصفات الكريمة. [صفحة ٢٦٧]

البعد البياني

هناك صنيعان قام بهما الامام زين العابدين، وفاهما حقهما من الاستفاضة و تمام التبليغ - اما الصنيع الأول فكان رسالة الحقوق: انها تتحلى بالبساطة و الموضوعية، و تكتفى بهما على فصاحة بريئة لا تلتجىء الى زخرف و أناقة بيانية، فهي موجهة الى كل فرد من أفراد الناس. ان تفهم كل فرد ما عليه من حقوق و موجبات هو الغاية و القصد، و ليس من حاجة الى استعمال علم البديع، و التلاعب بالصور البيانية و المجازية، و أى شكل من أشكال الخيال، لاتمام هذا الغرض و ايصاله الى المفاهيم، و الا فان الزخرف الكلامي يغرق القصد في متاهة لا- ينجو منها الا- نخبة قليلة لا- تمثل السواد الأعظم من الأمة المؤلفة من العمال، و الفلاحين، و الصناع، و الكادحين... من هنا نقول: ان رسالة الحقوق - بانشائها العادي البسيط، و بيانها الموضوعي السهل الآداء - جاءت بأصدق ما يمكن أن يؤديه عالم اجتماعي في تنوير أمة ينقصها صدق السياسة و وضوحها المبدئي. اما الصنيع الثاني - و كان «الصحيفة السجادية» - فهو طراز آخر صنفه وضع الأمة المأخوذة بسياسة ضاغطة لا تألو جهدا حتى [صفحة ٢٦٨] تبسط سيادتها على جميع بقاع الأرض التي تحيا فوقها طبقات الأمة، و تجنى منها أود عيشها، و أنماط سعادتها... ستحاول تلك السياسة تحقيق مبتغاها، و لو بالتجنى على حريات الغير: بالقهر، و الارهاب، و التهديد، و التنكيل، و كل أنواع الاضطهاد... اما الامامة المرتبطة بعهود رسالية - مبدئية - نبوية - روحية، فانها - أبدا - في مجال الدفاع عن قضية وجودية - حياتية، لا تنفصل عن الأمة، بل هي الأمة كلها بجوهرها المطلق، و وجودها الحي. بهذا المبدأ المتين الترسخ في ايمان الامام زين العابدين، كان لجوؤه الى ابتكار صنيع يؤديه للقضية، يكون بمثابة توجيه مركز، تستفيد منه الأمة في اصلاح أمورها، و ارشادها الى طرق الصواب، و ارشاد القيمين على مغالقات الحكم حتى لا- يتمادوا في الظلم و ارهاق الرعية... انه عمل تعويضي في الوقت الراهن، و انه توجيه روحي ستحتاجه الأمة في كل غد من أجيالها الصاعدة، تتعم في مسالكها في طريقها الممشية بأنواع الزيف. من هنا أن العمل كان موجهها توجيهها ملون الأبعاد، أملته ظروف سياسية لا تسمح للامام بتوسيع صدره في الساحات... فعمد الى السجود و الصلاة، يناجي بهما رب الأرض و رب السموات... كما و ان هذا اللون الرفيع من المناجاة، لا يتمكن من رفض سماعه لا الكفرة و لا الأتقياء، لا المظلومون و لا الظالمون... و لا حتى الباغون المتعدون على حياض العباد: [صفحة ٢٦٩] فالتقى يسمعه بارتياح النفس، و الكافر يسمعه بتبكيك الضمير، و بخوف من سوء المصير... و المظلومون يأخذونه بصبر مؤمن و راحة في البال... اما الظالمون الباغون فانهم المتأملون بالعاقبة الوخيمة، و المأخوذون بالزجر المقدس، يترصددهم عند فوهة القبر و في لحظات العبور. و كانت الصلوات محشوة بالتوريات الخفية، يزينها الفكر الأنيق، و المعنى المنزل في تجاويف الكلمات، و كان الفن مزروعا في سياسة الأسلوب، يصوغ الصور و يرتلها على موسيقى تنبض بها ضلوع الحروف، في فصاحة و بلاغة تخفت بهما جلالات الخيال، و أناقات التعبير، كأن الله - جل جلاله - هو المصغى اليها، و هو المهيم فيها كما كان مهيمنا في كل آية من سور القرآن...]

الخاتمة

فيها أيها الامام سبحان الله فيك - كيف لونك بالحرف - وكيف اندمج في مآتيك وكيف أشرققت به - وكيف أشرق فيك! وكيف وسعك الفن! وكيف وسعك الخيال! فكنت أسلوبا رفيعا - وكنت سجودا ذكيا وكنت صلاة مقدسة الحروف! وكنت قضية مدموجة بقضية! وكن قرآنا مدغوما بقرآن! وكنت وجها كريما مشعا! [صفحة ٢٧٢] وكنت مدرسة جديدة لنشر الحق بالحرف الجديد تكشف الباغي بانه في ضلال أكيد - وان الله هو مجمع الصفات الكريمة - وان الأمة هي المستودع الكريم - تتخبا لها منح الحياة - ولا تثمر الا منها ولها كل الهبات - وكل قدسيه الله النازلة في آيات - ولا تقدم الا لها مجامع الصلوات - ولا تطيب الا من أجلها السجادات - ولا ترتفع الا لها تحت قبة الله قباب السموات

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).
قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبَحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرُّضَا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - "رَحِمَهُ اللَّهُ" - كان أحداً من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشغفه بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) ولا سيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه وطريقه لم ينطفئ مصباحها، بل تتبّع بأقوى وأحسن موقف كل يوم.
مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطه من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - ومع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميه و طلاب الجوامع، بالليل والنهار، في مجالات شتى: دينية، ثقافية و علمية...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافته الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرر الأذق للمسائل الدينيه، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المبتدله أو الرديئه - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضيته واسعة جامعته ثقافيه على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافه القراءة و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلامية، إناله منابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...
- منها العدالة الاجتماعيه: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافه الاسلاميه و الإيرانيه - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.
- من الأنشطة الواسعه للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامه مسابقات القراءه

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركه و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...

(د) إبداع الموقع الانترنتى "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدّه مواقع أخر

(هـ) إنتاج المُنتجات العرضية، الخطابات و... للعرض فى القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدّعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية و الاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعية و اعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الديتية كمسجد جَمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسه" الخاص بالأطفال و الأحداث المُشاركين فى الجلسة

(ى) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السّنة

المكتب الرئيسى: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "بنج رمضان" و "مفتق" و فائى / "بنايه" القائمية

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزات الحالية لهذا المركز، شعبية، تبرعية، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا تُوفى الحجم المتزايد و المتسع للامور الدينية و العلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحه بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يُوفى الكلّ توفيقاً متزائلاً لإعانتهم - فى حدّ التمكن لكلّ احدٍ منهم - إيانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولىّ التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
أصبحان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

